

# المفتي أبو القاسم عظيم في عصره

( لمعة نور في عصر آفل )

محمد الحبيب الهيلة

إن للتاريخ الواحد في القرن الواحد والبلد الواحد قراءات كثيرًا ما تختلف وتتنوع وربما تتباعد وتتقاطع ، وما ذلك إلا بسبب اختلاف العيون القارئة والأصول التأسيسية لثقافات القارئ والمؤرخين، وهو أيضًا بسبب التعصّب للانتساب الفكري أو التعصّب الديني أو تعصّب المتحرّبين.

محمد الحبيب الهيلة

## المقدمة:

مرّت على البلاد التونسية في تاريخها الإسلامي مرحلتان عصيبتان أتتا على الأخضر واليابس وتحملّ الناس منهما الشدائد والصّعاب. كانت الأولى عند هجمة أعراب بني هلال على العاصمة الإسلامية الأولى مدينة القيروان، وكانت الثانية عند هجمتي شارلكان وابنه غير الشرعي دون جوان على العاصمة الثانية مدينة تونس في القرن 10 هـ / 16 م . وفي كلتا الهجمتين أزهقت النفوس وهُدمت معالم الحضارة وهرب الناس إلى الجبال والمغاور وبُعثرت المخطوطات وشحّ وجود المثقفين والعلماء.

وإذا كانت الهجمة الأولى قد وقعت نتيجة ثأر بين السنّة والشيعّة فإن الهجمة الثانية كانت نتيجة حرب متواصلة بين الإسلام والنصرانية بدأت من القرن 11 م في الحروب الصليبية التي وقف المؤرخون لها عند الحرب الصليبية الثامنة التي قادها القديس لويس ( القرن 13 م ) على تونس. إلاّ أنه في الواقع حدثت مواصلة صليبيات أخرى في غرب البلاد الإسلامية، فكانت منها التاسعة التي تُعرف بحرب الاسترداد بالأندلس *La reconquista* . ثم كانت العاشرة التي اتجهت إلى شمال إفريقيا من أقصى مغربه إلى أدناه في طرابلس ولم تكن غايتها ومقصدها الأساسي إلاّ مدينة تونس التي ركّز عليها الصليبيون بسبب موقعها وأهميتها فصبّوا عليها جام حقدهم في حملتين وحشيتين أولاهما قام بها شارلكان Charles Quint سنة 1535م والثانية قادها ابنه غير الشرعي دون جوان دوتريش Don Juan d'Autriche سنة 1574م. وقد جاءت هاتان

الهجماتان في عصر شيخوخة دولة الحفصيين التي لم تواجه الخطر الدايم إلا بالخianات المتكررة، مما أوجد انقطاعا عميقا بينها وبين عناصر الشعب بمختلف طبقاته وأنماطه. في بلد انهارت سلطته وتشتتت وحدته فسقط سلاحه وعزّ نصيره بسبب سوء التدبير وسُقم السياسة، وقد وقفت أمامه أكبر إمبراطورية أوربية بحشودها العسكرية التي جمعت العديد من الدول تتحرك لإنفاذ هجمة صليبية لا يمكن أن تُقابل إلا بما يناسبها من حرارة روح الجهاد الإسلامي يقوده المنقذ العثماني مع شعوب منطقة الشمال الإفريقي لكي تتكافأ الكفتان النصرانية والإسلامية. ويكفي أن نتخيل النتائج لو انتصر شارلكان ووقعت هزيمة الأتراك في تونس وحلق الواد والمواني الأخرى....

إن الخصب الثقافي الذي عرفته البلاد التونسية في عهد ابن خلدون وابن عرفة والبرزلي والأبي والقاصدي عاصراً دولة راسية القواعد اتصل قادتُها بالأرض والمبادئ واعتمدوا على العنصر البشري الذي كان يستجيب لقادته، فظلّ الجميع يُنتج ويُنشئ في حقول كثيرة من اجتماعية وثقافية وغيرها، مما سمح لمدرسة ابن عرفة أن تحصل على ازدهارٍ منتجٍ إلا أنه لم يعش طويلاً بسبب حدوث انقطاع الصلة بين الحاكم والمحكوم وبسبب صراع الإخوة من أبناء العائلة المالكة الحفصية الذين التجؤوا إلى التعامل بينهم بالعنف والغدر، ثم آل بهم الأمر إلى ركوب مراكب الخيانة فتسارع الملوك الأربعة الأخيرون إلى الاستنصار بالجيش النصراني وتمكينه من الاستيلاء على البلاد ومقاسمتهم السلطة وصرف الأموال الطائلة لهم.

وهكذا أصبح عصرهم عصرًا أفلاً أصابته جائحة الخيانة فجّقت منابعه الحضارية الثقافية، وبعد جيلين فقط من بداية مدرسة ابن عرفة أصبحت أرض الثقافة

التونسية وكأنها يباب، تكاد لا تجد فيها كتابا تاريخيا هاما طيلة ثلاثة قرون، كما لا تكاد أن تجد في كتب طبقات العلماء غير بضعة محدودة من أعلام الفكر غادر أغلبهم البلد ومن بقي لم يكن في الغالب إلا من حشو الفقهاء لم يكن لهم كبير علاقة بالفقه الحقيقي كما لم تكن لهم علاقة بفكر ونظر واجتهاد. مما جعل بعض المؤرخين مثل حسين خوجة التركي يقول في ذيل البشائر إن " المنلا أحمد أفندي وجد تونس إذ ذاك خاوية من العلم فأخذ عنه جماعة" <sup>1</sup> وكأنه يريد أن يبين بأن العلم قد انقطع من البلاد التونسية إلى أن جاء أحمد أفندي التركي فبعثه من نومته. كلام حسين خوجة هذا تناقله بعض المؤرخين التونسيين رغم ما فيه من ادعاء راجع لنفس من العنصرية التركية، وإلا فإن ما ذكره أيضًا بأن المنلا أحمد أفندي كان يجهل علم الفرائض فتعلّمه في تونس على أحد شيوخها، وعندما اضطرّ هذا الشيخ للتخلف عن الدرس كلف ابنه الشاب أن يدرس أحمد أفندي ويعلمه الفرائض عوضه .

في هذا العصر الأجدب ظهر ثلاثة أعلام يصدق عليهم وصف العلم وهم مغوش وخروف وأبو القاسم عظوم. هاجر الأول فشرّق، وهاجر الثاني فشرّق ثم غرب، وقعد الثالث عن السفر فبقي منصرفاً عن الأنظار حتى أزيحت الدولة الحفصية فظهر شأنه وسُمّي مفتياً لتونس حالما استقرت السلطة العثمانية.

أبو القاسم عظوم رجل فقيه ولكنه ليس كفقهاء عصره، فهو فقيه ناظر في أعماق الفكر الفقهي، يجمع وينقل ثم يفهم ويستفهم ثم يستنتج ويقوم ما اعوجّ وتحجّر من أنظار فقهاء زمانه. تقرأ إنتاجه فتجد نفسك وكأنك تطالع تأصيل ابن عرفة وسعة جمع البرزلي ودقة فهم الأبّي ومن مائلهم. فهو يذهب بالنظر إلى أبعاد من الاستتباط ومراعاة

الأحكام لحقائق الواقع الاجتماعي. يستدلّ بسعة استجلابه لنصوص الأسبقين ممن يصحّ ويصلح نقل أقواله، كما يستدلّ بالنظائر والأشباه من الحالات الاجتماعية، ثم يستدلّ على ما يراه من صواب باستعمال فكرٍ كثيرًا ما يتحرر عن أقوال سابقيه من الفقهاء فتصدر عنه أحكام وآراء جريئة - بالنسبة لعصره - لأنه اعتمد فيها الرأي المستنير والتفكير السوي وقيمة العُرف والمصالح العامة.

وإنك لتعجب أن ترى رجلاً مثل هذا في عصر مثل ذلك، فتقف مقدراً للرجل سعة علمه وحسن فهمه لظروف عصره. وهذا ما حدث لي عند ما أخذتُ في مطالعة أجوبته وفتاويه. وازداد عجبني أيضاً فوجدتُ نفسي أتساءل: كيف بقي إنتاجه مغموراً ولم يهتمّ بكتابه الباحثون والمحققون غير قلّة أقلّ من القليل تناولوا بعض جوانب منه.

لقد كُتِبَ لي أن أتعامل مع الفتاوى الفقهية المغاربية منذ أمدٍ طويل وحالما أنهيتُ تحقيقي لفتاوى البرزلي ونشرته دار الغرب الإسلامي في سبعة أجزاء توجّهتُ رأساً لأجوبة عظوم بتشجيع ورعاية من بيت الحكمة بتونس. وبعد تجميع المخطوطات وجدتُ أن لهذه الأجوبة خصائص امتازتُ بها ومحاسن لم توجد في غيرها، إذ بالإضافة إلى ما امتازت به من العمل الفقهي البارِع فإنها احتوت على معلومات نادرة وأخبار عن الأوضاع الاجتماعية والتاريخية والحضارية تضيف الكثير للتاريخ الحضاري بالبلاد التونسية خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. لذلك انصرفتُ إلى تحقيقها منذ سنوات ستّ، ثم أنهيتُ تحقيقه وفهرسته منذ وقت قريب، والحمد لله على نَعْمائه.

لقد عايشْتُ أبا القاسم عظمِ سنواتٍ وتتبَّعتُ بالقراءة والتحقيقُ المئات من الأجوبة والتذييلات والإحالات والنقول والأنظار، حتى أصبحتُ أعرف عن الرجل وكتابه الشيء الكثير. ولعل العمر المكتوب يسمح لي بوضع دراسة واسعة تتناول الرجل بالكثير من التفصيل وتتناول الكتاب بالعديد من وجوه الدراسة والتعريف، وتُبرزُ بعض ما يحويه الكتاب من عناصر تاريخية وحضارية خاصة بالبلاد التونسية لفترة خلت من عناصر الكتابة التاريخية فضلا عن ذكر المظاهر الحضارية. وبذلك أكون قد وفَّيتُ الرجل حقَّه وعرَّفتُ بشخصية تونسية قدَّمتُ الدليل على أنَّ رَحِمَ هذه الأرض الولود لا يزال نابضًا بالحياة رغم ما أصيب به من هجمة وحشية، لذلك اعتبرتُ أبا القاسم عظمِ لمعة نور في عصرٍ أفلٍ.

وقد طلب مني بعض أهل النظر الاستعجالَ ببعض الخير ووضع كُتَيْبٍ يستفيد منه الباحث المؤرخ ويقرؤه المثقَّف المطالع فيفقه مجالات فقهِه ويكشف للشباب من طلبة العلم نمطًا من أهل العلم في وطنهم. فما كان مني إلا أن استجبتُ ووضعت هذا الموجز للتعريف بعصر أبي القاسم عظمِ وأهواله ثم بحياة الرجل ومكانته العلمية وأحواله، منتقلا إلى تقديم كتابه "الأجوبة" وتوضيح أهمِّ مناهجه ثم تقديم أمثلة ونصوص تقوم عيِّنات أولية دالة على ما كان للرجل من نظرٍ واعٍ تخضع فيه الآراء الفقهية للتطوير وحسن الفهم دون المسَّ بالأصول ودون الغرق في المسالك الفقهية العقيمة.

أما وقد يسَّرَ الله لي إتمام تحقيق كتاب أجوبة الشيخ عظمِ ويسَّرَ الله للمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة" أن تطبعه في عهد ازدهارها الحالي فإنني أشعر بالغبطة لأنني كشفتُ الغطاء عن أثر هام يعرف أهميته أهل الاختصاص وُلد

في عصر مظلم من الهزيمة والخمول، وكأني أريد أن أُقيم الدليل على أنّ الأمم في عصر انحلالها يمكن أن تلد الفكر النّيرّ الواعي. وهو درسٌ يغرس في النفوس القانطة بذرات الرجاء في مستقبل مأمول.

محمد الحبيب الهيلة

عصر عظوم عتمة في التاريخ



## الظرف الزماني والمكاني:

عاش أبو القاسم عظوم أغلب أيام حياته في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي الذي كانت أغلب سنواته حبلً بالحوادث والأحداث الأليمة، حيث تحرّكت القوى النصرانية<sup>2</sup> التي نالت نصراً عظيماً بعد طرد بقايا المسلمين من بلاد الأندلس تقودها عزّة الانتصار وطفرة الاندفاع ونخوة التجمّع تحت راية أمبراطورية أوربية مستجيبة لدافع ديني عنيف. إنها أمبراطورية تنظر إلى جنوب البحر الأبيض المتوسط ضاحكة على ما تراه فيه من دويلات عجفاء غاب عنها الوعي وعميت عن النظر إلى المستقبل وقد ارتسمت فيها هوة سحيقة بين الحكام والمحكومين، دويلات تتوزّع أمام الأطماع وتتحارب على القليل من الفئات فينتطاول بعضها على بعض. ويتوقف جميع ملوكها وأمرائها منبهرين مبهورين أمام تلك الأمبراطورية النصرانية القوية بتجمّعها الزاحفة على ثغورهم ومُدُنهم. وما أشبه حال الطرفين بحال ثعبان عظيم فاغرٍ فاه يتحفّز لالتقام بعض الطيور الصغيرة الداجنة.

لقد تمّ النصر للملكين الكاتوليكيين فرديناند وإزابيلا وقويت المملكة الإسبانية بسقوط غرناطة سنة 1492 م. ثم حاولت هذه المملكة القيام بمناوشات مع بعض المدن الإسلامية بالمغربيين الأقصى والأوسط. ثم ظهر بعد ربع قرن من ذلك ملك إسبانيا الجديد سنة 1516 م الذي انتصر على ملك فرنسا وحمل لقب الأمبراطور وسُمّي شارل الخامس (شارلكان). هو حفيد الملكين الكاتوليكيين ووريثهما، وهو أيضاً حفيد ملك النمسا ووريثه، مع ما له من علاقات نسبٍ متشابكة جعلته بعد وفاة جده فرديناند يتربّع على عروش متعددة، فتنسج مملكته للعديد من البلاد الأوربية منها شبه الجزيرة الإيبيرية

بما فيها من قشتالة وأرغون والبرتغال، ثم بلاد الفلاندر وبلاد النمسا مع دويلات إيطاليا، دون نكرٍ لسلطته على مناطق من جنوب أمريكا وبعض المستعمرات في الشرق الأقصى. فلم تجد الكنيسة العظمى الأم أصلح من ترشيحه لحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة. فكانت له في أول أمره جولات عسكرية في أوروبا وجنوب أمريكا لم تخلُ من مَعَرَّاتٍ وعُنْفٍ وحشي، إذ اعتدى جيشه على المناهضين له في روما واستحلوا الراهبات وخيرات بعض الكنائس في سنة 1527 م. كما ارتكب هذا الجيش جرائم ضد الإنسانية في بلاد البيرو والمكسيك واستعبد عامة أهل البلاد.

لم تدم تحركاته الأوربية طويلاً فرأت الحكمة البابوية أن توجه هذا الجهد الشاب القوي إلى حرب صليبية جديدة كان قد كُفِّف بها جدّه سنة 1509م من طرف القديس يوليوس الثاني Jules II الذي أصدر براءة في ذلك ( Bulle de la Croisade ) وعندما اعتلى شارلكان عرشاً متسعاً جداً تجمعت له به العناصر الأساسية لقيام الحرب الصليبية ، حربٍ يمكن أن تجمع ما تشتتت من العناصر التابعة للكنيسة وترمي بهم مسلمي الشمال الإفريقي، أولئك الذين كانت تسميهم كُفَّارًا (infidels) وتطبّق عليهم ما صنعتّه مع العناصر الأندلسية منذ زمن قريب.

لقد نعتنا حركة شارلكان وابنه من بعده بأنها حرب صليبية اعتماداً على أمرين

هامين<sup>3</sup> :

أولهما ، ما تجمّع لدينا من المصادر الأوربية المكتوبة في القرن السادس عشر الميلادي وبعده التي تصف هذا التحرك بأنه حرب صليبية، رغم أننا لم نجد مصدرًا عربيًا واحدًا يصفها بذلك.

ثانيهما ، أن الحروب الصليبية الثمانية الأولى تجمّعت فيها خصائص وشروط معيّنة.

وعندما قرأنا مصادر هذا التحرك وجدنا جميع هذه الخصائص متوقّرة في حربين هما حرب الاسترداد ( La Reconquista ) في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . والحرب الموالية وهي هذه التي شُنّت على الشمال الإفريقي في القرن السادس عشر.

إن أهم الشروط التي يجب أن تتوفر في تأسيس حرب صليبية هي:

- صدور القرار أو البراءة من بابا الكنيسة العظمى بروما وهي التي تُسمّى

( Bulle de la croisade ) .

- أن تتمتع الحركة بميزانية مالية كافية تُجمّع بإذن البابا من عدد كبير من

الكنائس، تنضاف إليها الصدقات من النصارى التي يدفعونها للإعانة على الحرب ضد

أعداء الديانة الكاثوليكية. وقد تسمّى ضريبة الصليب أو Subsidio أو Crusada . وقد

استعمل شارلكان وابنه هذه الضريبة في حربهما.

- إن الحرب الصليبية هي تلك الحركة العسكرية التي تكون لغاية دينية تقام ضد

الكفار les mécréants.

- أن يكون قادة الحرب الصليبية من رجال الكنيسة ، إمّا من القساوسة أو من

الملوك والأمراء والقادة الذين حملوا ألقاباً دينية خصّتهم بها الكنيسة . فقد سُمّي شارلكان

ببطل النصرانية Champion de la Chrétienté .

- أن تتجمع تحت لواء قائد الحملة الصليبية جيوش من العديد من الدول والإمارات المختلفة النواحي والجنسيات مع مشاركة جيوش خاصة بالكنيسة ، يقوم جميعهم بحرب واحدة ولا تعود فوائدها لدولة واحدة بل تكون نتائجها مشاعة بين الجميع. لذلك نلاحظ أن الجيش الذي جاء به شارلكان وابنه دون جوان إلى تونس قد تجمعت تحت لوائه القوى التالية : إسبانيا بقسميها قشتالة وأرغون ثم البرتغال وجيش البابوية Le Saint Siège وجيش Les électeurs من ألمانيا وجيوش الإمارات الإيطالية : البندقية ونابلي وثسكانا وصقلية، يضاف لذلك بعض المرتزقة من فرنسا من جهة Gascogne مع تنظيمات عسكرية رهبانية أخرى منها :

L'ordre de Saint Jean de Jérusalem , Les Galères de la religion

#### . Les Chevaliers de Malte.

- أن تقع تسمية الأماكن والحصون والمباني بأسماء نصرانية لإعطاء الشكل النهائي المقصود من الحرب الصليبية. فقد وقع ذلك في الحروب الصليبية السبع الأولى التي اتجهت إلى المشرق العربي بداية من أواخر القرن 5 هـ / 11 م . وهو نفس ما وقع في هذه الصليبية حيث إن النصارى بمجرد استيلائهم على حلق الوادي وسّعوا مبانيه وزادوا تهيئته ليكون منيعاً فجعلوه أقوى مركز عسكري لهم في المنطقة ، وأصبح يشتمل على عشرة حصون صغيرة تحمل أسماء قديسين من النصارى<sup>4</sup>.

دامت هذه الحرب الصليبية ضد شمال إفريقيا أكثر من ستين سنة ( 1509 -

1575 ) أصيبت فيها مدينة تونس بأقسى الهجمات وأطولها زمناً ( 40 سنة ) حيث

استولى شارلكان عليها سنة 1535م فحدثت فيها "خطرة الاربعاء" المشهورة. وعاد إليها

ابنه دون جوان سنة 1574 م لتتكرر على أهل تونس مقاساتهم فوقعت فيهم "خطرة الجمعة".

ولعلنا إذا تتبعنا هذه القائمة التي وضعناها على عجل لنحدد هجمات النصارى في القرن 10 هـ / 16 م على الشواطئ والمرافئ والمراكز والمدن الإسلامية بالمغرب العربي تستبين لنا أبعاد المقاصد النصرانية وإصرار حُكَّامها على بناء دولة كاتوليكية في كامل الشمال الإفريقي. فكانت هجماتهم كما ترى مقاصدها وتواريخها:

- المرسى الكبير 1504

- وهران 1509

- طرابلس 1508 ثم 1510

- بجاية 1510

- بنزرت 1516

وهي الهجمات التي حدثت في عهد فرديناند الكاتوليكي الذي مات سنة 1516م.

- جربة 1520

- بنزرت 1535

- تونس 1535

- سوسة 1537

- الجزائر 1541

- قليبية 1549

- المهدية 1550

- المنستير 1550

- جربة 1560

- تونس 1574

- بناء البستيون بتونس 1573

هذه حركات شارلكان وابنه دون جوان التي انتهت بهزيمتهم وخروجهم من

المراكز التي استولوا عليها ثم انهاروا أمام الجيش العثماني بقيادة سنان باشا.

تُعتبر مدينة تونس أهمّ مقصدٍ للجيش النصرانية لأنها الوحيدة التي هوجمت منهم

هجمتين قويتين وقام على الحركتين الملك الأمبراطور شارلكان ثم ابنه دون جوان. وقد

جاء كل واحد منهما بجيشٍ جمع أكبر عددٍ ممكن من المقاتلة في ذلك العصر. لقد

خضعت تونس للسلطة النصرانية أربعين سنة بداية من سنة 1535 م إلى سنة 1574م.

ثم هي المدينة الوحيدة التي طال فيها أمد الاستيلاء وتعرضت للنهب مرتين وأسس

المنتصرون أكبر المراكز العسكرية للحفاظ على سلطتهم فيها ففوّوا حصن حلق الوادي

وأسسوا حصن التجمع العسكري المسمى بالبستيون أمام باب تونس الرئيسي لمنع

ثوراتها من الداخل واعتراض أي نجدة تأتي إليها من خارج المدينة.

طُبع المجتمع التونسي في هذا العصر بطابع النكبة والهزيمة خاصة في وقعتين

هما وقعة الأربعاء ووقعة الجمعة .

حدثت الأولى سنة 1535م عندما جاء أسطول شارلكان إلى تونس لطرده

القراصنة الأتراك وكان قدامهم بدعوة من مليكها الحسن الحفصي وتمكينه من استحلالها

للجيش النصراني الذي تعوّد استحلال المدن سواء في روما أو في جنوب القارة

الأمريكية. هجم على تونس بغتة بعد استئمان الناس والأسواق والبيوت والأعراض، فكانت بغتة مقصودة من شارلكان ومقبولة من الحسن الحفصي. عُرفت الهجمة عند المؤرخين التونسيين باسم " وقعة الاربعاء " التي قُتل فيها الثلث 60000 شخص، وتشرّد الثلث في الجبال، وعاش الثلث في المدينة تحت العبودية. ويكفي أن نصف هذه الهجمة بما وصفها به بعض المؤرخين الأوربيين ( L'abominable pillage que la ville de Tunis subit ) النهب الشنيع الذي أصيبت به مدينة تونس<sup>5</sup>. ويتعود الحسن الحفصي الخيانة فيدعو جيش سيّده النصراني لينتقم من ثورة شعبية قامت وانتصرت بالقيروان ويستحلّ لهم أيضا العاصمة العتيقة. ولكن الهزيمة هناك أصابتهم ولم يقدرُوا على نهب القيروان وانقادت المدينة إلى دولة الشيخ عرفة الشابي. وفي هذه المرحلة وُلد أبو القاسم عظم.

أما الهجمة الثانية التي حدثت فيها "وقعة الجمعة" فقد أصيبت بها تونس عند هجمة دون جوان دوتريش عليها سنة 1574م فتشرّد عنها أهلها خوفا من أن يفعل الابن غير الشرعي ما فعله الأب قبل قرابة الأربعين سنة. فتركوا بيوتهم وأملاكهم ودخل الجند الصليبي ليستولي على أملاك أهل المدينة ويستحلّوا بيوتها وأرزاقها، كما دخلوا جامع الزيتونة واستحلّوا حرمه وبدّدوا مخطوطاته. وفي هذه المرحلة كان أبو القاسم عظم قد أنمّ تكوينه الثقافي وتخرّج من دراسته في القيروان ثم في تونس التي كان يعيش فيها ويشغل وظيفة العدالة والإشهاد عند حصول "وقعة الجمعة".

كان ظهور الأسطول العثماني ضرورة أساسية وحاجة ملحة ذات خلفية دينية. وقد جاء لإنقاذ الوجود الإسلامي في الشمال الإفريقي وحمايته من الهجمة الصليبية التي

كانت هي أيضاً لها ذات خلفية دينية ترمي لإيجاد دولة مسيحية كاتوليكية في المنطقة. إن الدارس لنصوص الوثائق العثمانية المعاصرة للهجمة النصرانية على الشمال يلاحظ أن هذه النصوص تؤكد على أن التحرك العسكري العثماني لم يكن صادراً إلا عن خلفية دينية بحتة. إذ اعتبرت الدولة العثمانية أن عملها في صدّ الهجوم الصليبي هو من باب الجهاد الذي يكون مفروضاً على مَنْ له الولاية العامة للدفاع عن أية جهة من جهات البلاد الإسلامية. فكم أعلن الباب العالي أن تدخله لحماية الشمال الإفريقي " إنما هو لله ولإعلاء كلمة الله ولدفع مكيدة أعداء الله. وهذا هو مقصدنا الأعظم وسبيلنا الأقوم دائماً لقيام شوكة الإسلام ". وعندما علم السلطان بخبر استيلاء النصارى على بعض الثغور الإفريقية قال " وقد كان عزمنا الشريف مَصْرُوفاً لفتح تلك الديار واستخلاصها من أيديهم نصره لأهالي الإسلام وعزّة لدين سيد الأنام ... " <sup>6</sup>

ويتبين للدارس والمطلع على العديد من أمثلة هذه النصوص أن الخلفية الأساسية للوجود العثماني في الجزء الجنوبي الغربي من البحر الأبيض المتوسط لم تكن إلا خلفية دينية، تأسست على موقفٍ دفاعي لمواجهة الخلفية الدينية التي تحرك بها الأمبراطور الإسباني ومن جاء بعده من أبنائه. إلا أن الكتب الغربية والدراسات الناتجة عن مدرستها حاولت أن تقنعنا وتعلمنا بأن " مجيء الدولة العثمانية للبلاد المغاربية كان لقصد الاستعمار ونهب ثرواتنا وقتل روح الخلق في شعوبنا وإطفاء روح العلم في ربوعنا وممارسة أساليب البطش علينا بصفة عامة ... فلولا هذه القوة العسكرية (النصرانية) الرادعة ... لما أمكن لتونس مطلقاً أن تُجابه بمفردها هذا الخطر (العثماني) " <sup>7</sup>. فهل كان



خطر العثمانيين على الشمال الإفريقي أقسى وأعنف مما أصاب تونس عند وصول شاركان وابنه؟

لقد عاش أبو القاسم عظم في مرحلة انحطاط الدولة الحفصية فعاصر الملوك الثلاثة الأواخر وهم الحسن بن محمد وأحمد بن الحسن ومحمد بن الحسن، وهم أبّ وابناه أحمد ومحمد، ولثلاثتهم سوء سيرة في الناس وانقطاع بينهم وبين الشعب مع انعدام المعاني والمبادئ الإسلامية في نفوس هؤلاء الملوك إلى درجة جعلتهم يقومون بخيانات متوالية. فقد جلبوا القوى النصرانية للاستيلاء على البلاد وقتل عشرات الآلاف من المواطنين وتسليم سلطاتهم للقادة المحتلين، وكانت لهم غدرات متوالية.

فالغدر الأول من غدرات هؤلاء الملوك الحفصيين الأواخر هي استنجاد الحسن بشاركان الذي جاء لاحتلال تونس وإرجاع الحسن إلى نصف ملكه بعد طرد خير الدين واستحلال مدينة تونس وأهلها. يصف المؤرخ ابن أبي دينار ذلك بقوله: " ولما دخل الحسن إلى قصبته واطمأنّ الناس وقعد كل صانع في صناعته وأهل الربع فتحوا ربّعهم واطمأنوا في أماكنهم دهمهم عدو الدين، فهجمت النصارى عليهم على حين غفلة في قائلّة والأسواق مفتوحة. فأخذوا ما فيها من الأمتعة وقتلوا أهلها وسبّوا خلقًا كثيرًا وفرّ الناس بعيالهم ممن قدر على الهرب ورحلوا إلى ناحية زغوان. فبعث عظيم النصارى إلى العرب ( الأعراب ) وجعل جُعلًا على كل مسلم أتوا به إليه .... وكان الخطب جسيمًا. وهذه الواقعة هي المعبر عنها "بخطرة الإربعاء" . وكان السلطان الحسن أباح البلد للنصارى ثلاثة أيام .... وقيل : في هذه الواقعة أُسِرَ الثلث ومات الثلث وهرب الثلث

. وسمعتُ من شيوخ البلد مَنْ يقول: عدد كل ثلث ستون ألفاً ، والله أعلم بحقيقة ذلك .  
وكانت هذه الواقعة في سنة إحدى وأربعين وتسع مائة ( 1535 م )<sup>8</sup>.

والغدرة الثانية، خروج الحسن إلى بلاد النصارى وإحاحه على شارلكان في طلب إعانة عسكرية جديدة، ثم مجيؤه بعمارة نصرانية وقد عزم على معاقبة مدينة القيروان كما عاقب تونس بالنصارى سابقاً. ولم يتم له ذلك لأن ابنه حاول عزله. وصل الحسن بجيش النصارى إلى تونس فلقبهم أحمد وأهل تونس وانتصروا عليهم. وهرب الحسن وعُزل وسُملت عيناه، وسُجن ثم هرب إلى بلاد النصارى فمات في البحر حسب بعض الروايات .

الغدرة الثالثة، قام بها السلطان أحمد بعد أن سلك مسلكاً حسناً في أول أمره فحاول الإصلاح الاجتماعي وربط عُرى التواصل مع الدولة العثمانية. إلا أن مشاكل الأعراب ومشاكل أخرى حدثت بينه وبين قادة الجزائر من العثمانيين وهاجمه علي باشا فحاول مدافعته ولكنه انهزم، ففرع أبواب النصارى بشخصه في حلق الوادي وطلب منهم عمارة لاسترجاع حكمه. ولما وصلت العمارة اشترطوا عليه مقاسمتهم الحكم فرفض، وعندما رفض عزلوه وولّوا أخاه محمداً. وانصرف إلى جزيرة صقلية فعاش بها يقات من مرتب وإعانة من النصارى. وكان يحضر بعض أعيادهم الدينية في كنائسهم. ثم أعادوه لتونس ميئاً.

الغدرة الرابعة، قبول السلطان محمد بن الحسن الشروط التي رفضها أخوه أحمد وقدم بالعمارة النصرانية إلى مدينة تونس. وخاف أهلها من أن يفعل دون جوان Don Juan بهم ما فعله أبوه شارلكان فهربوا إلى جبل الرصاص وسكنوا في دواميسه لذلك

سُمّيت "خطرة الدواميس" كما سُمّيت "وقعة الجمعة". يروي ابن أبي دينار أخبار هذه الهجمة فيقول: "كان فيها الخطب جليلاً وكانت في زمن الخريف وغالب أهل البلاد عرائس فانهتكت حجابهم وافتضحوا ونالهم من الهوان ما لم يعهدوه وصنعوا نوائل في الغابات وسكنوا بها وتسوّلوا بين خيام البادية.... ودعاهم السلطان إلى الرجوع فمن وجد داره أخذها ومن وجدها بيد النصارى أوكل أمره إلى الله. وقُسمت المدينة قسمين كفر وإيمان. وفي تلك الأيام أهين المسجد الأعظم ونُهبت خزائن الكتب التي به. ودرست بأرجل الكفرة معالم المدارس وتفرقت جميع ما فيها من دواوين العلوم وتبددت في الشوارع، حتى قيل إنّ المارّ من شرقي الجامع إنما يمرّ على الكتب المطروحة هناك. وضربت النواقيس في الحاضرة. وسمعتُ بعض أهل البلاد يقول: إنّ النصارى ربطوا خيولهم بالجامع الأعظم ونبشوا قبر الشيخ سيدي محرز بن خلف فلم يجدوا به إلاّ الرمل، وفعلوا ما لا تفعله الأعداء بالأعداء وساكنوا المسلمين"<sup>9</sup>.

قطعت هذه الخيانات كل رباط بين العائلة الحفصية والمجتمع التونسي حضره وبإيديته وفضل بعض أبناء الحفصيين البقاء بإيطاليا والتنصر الصادق ثم الموت بها<sup>10</sup>. وهكذا انتهت الدولة الحفصية مودعة سلطتها على البلاد، خاتمة حياتها التي كانت شريفة سابقاً بثلاثة من السلاطين حملوا لواء الخيانة الدينية والوطنية.

يحقّ لنا أن نعتبر عصر عظوم عصرًا آفلاً قلّ فيه عدد العلماء وضعف فيه الإنتاج الفكري المبدع مع انحسار العلم في القليل من الفقهاء المرذدين لأقوال الفقهاء السابقين، والتالين بحفظ ومحافظّة متجبرّة لنصوص المتون والشروح الباهتة والدوران حولها. مما سبّب قلّة في المثقفين من أهل النظر والفهم المتناولين لما كان يسمّى بعلوم

المعقول. أما ما توارد من أقوال بعض المؤرخين من أن العلم في البلاد التونسية قد اضمحلّ وأن تونس في ذلك العصر كانت خالية من العلم<sup>11</sup> ونقله عنهم العديد من المؤرخين فإنه كلام مردود تصدّى له بعض الباحثين من أساتذتنا<sup>12</sup>. وإنما الصواب أن يُقال: بأن الثقافة ضعفت وأن الإنتاج قلّ وأن أهل العلم تناقص عددهم وافتقر زاهم. وإنّ الناظر إلى ما أصيبت به مدينة تونس من الهجمتين الصليبيتين المذكورتين أعلاه يلاحظ أنه منذ القرن الثالث عشر ميلادي إلى يومنا هذا لم تعرف مدينة من مدن الشمال الإفريقي مأساة أكثر ضراوة ولا أقسى شدة من تلك الضراوة والوحشية التي تحمّلتها مدينة تونس في وقعة الإربعاء ( 1535 م ) ثم في وقعة الجمعة ( 1574 م ). أربعون سنة من الاحتلال والتدمير مسبقة بسنوات عجاف من انحدار الحفصيين إلى الانحلال السياسي والأخلاقي والخيانة التي لم تُعرف في من قبلهم ولا في من بعدهم. فهل يسوغ لنا أن نطالب عصرًا أصيب بكل هذا أن ينتج علمًا رفيعًا وولد عددًا وافراً من العلماء والمفكرين المبدعين؟

نطالع كُتب الطبقات والتراجم فلا نجدها تذكر إلا القليل ممن ينتسبون إلى هذا العصر وأغلبهم ترد تراجمهم التي تصفهم بالأوصاف الفقهية الحشوية العادية دون إشارة إلى علم بالنظر والفهم. ومن غريب ما يُلاحظ أن أفضل ما اتفقت المصادر على تمييزهم من علماء التونسيين في هذا العصر هم ثلاثة:

- أولهم الشيخ محمد مغوش التونسي الذي غادر البلاد عند المحنة ووصل إلى

اسطنبول فظهرت مكانته العلمية وارتفع شأنه في الدولة العثمانية. ثم تنقل بين الحجاز حاجًا والشام ومصر التي مات بها في عشر الخمسين وستمئة. ولم يكن له في تونس

متّسع حياة تناسب درجته. فعندما كان حيًّا بالمشرق وصفته المصادر بأنه البارِع في المعقول. وزيادة في التحديد قالت عنه: قرأ بتونس حتى صار أعلم العلماء بالمعقول، وخرج للمشرق من تونس عندما أخذها النصارى. طلب منه السلطان سليمان القانوني البقاء عنده فاعتذر. وذهب إلى الشام فحج ورجع إليه من الحجاز متضلّعًا بالعلوم والفهوم. أُلّف في ترجمته أحد علماء الشام أحمد الطيبي تأليفًا عنوانه " السكر المرشوش ، في تاريخ الشيخ مغوش " <sup>13</sup>. وانتقل إلى مصر فعظّمه واليها وظهرت مكانته في الفنون العقلية. أحبّه أهل العلم وطلّابه حتى قال فيه أحد شعرائهم:

ألا يا مالك العلماء يا مَنْ      به في الأرض أثمرَ كلّ مغرس  
لئن أوحشتَ تونس بَعْدَ بَعْدٍ      فأنتَ بمصر ملك الحسن تُونس  
وكتبوا على ضريحه :

تُوفِّي التونسي فقلتُ بيّنًا      يهيج كل ذي شَجَنٍ ويونس  
أثوحشُنا وتونس بطن أرضٍ      ولكن مثلما أوحشتَ تونس<sup>14</sup>

- ثانيهم محمد خروف الأنصاري التونسي - جار الله - كان من العلماء بالمعقول.

وصفه عبد الحي الكتاني بالعلامة المعقولي وأخذ عنه الناس بفاس العلوم العقلية وهو مجدّد سند تعليمها. أخذ بتونس العلم وعلم بها ثم رحل رحلة واسعة جمع أخبارها في كتاب. أقام بمكة زمنًا في طلب العلم وبثّه حتى سُمّي جار الله وتتلّمذ على محدّث مكة ومؤرخها العزّ بن فهد. أسير الشيخ خروف عند النصارى ففداه سلطان فاس أحمد المريني الوطاسي بواسطة الشيخ محمد اليسيتني. وأقام بفاس مكرّمًا حتى توفّي بها سنة 966هـ / 1559م. قال عنه ابن القاضي في جذوة الاقتباس: كان معقولًا بيانًا وله

معرفة بالأصلين. ونقل مخلوف في شجرة النور الزكية عن أحد تلاميذه قوله عنه: كان سوق المعقول كاسدًا بفاس فضلًا عن سائر أقطار المغرب فنفق في زمانه ما كان كاسدًا من سوق الأصلين المنطق والبيان وسائر العلوم. رغم أنه وصل إلى فاس وقد غرقت كتبه في البحر عند أسره<sup>15</sup>.

- ثالثهم أبو القاسم عظوم الذي لم يهاجر من البلد إذ كان صغير السن عند هجمة الصليبيين الأولى وقضى شبابه في القيروان التي لم تقدر العساكر المعتدية على دخولها وإخضاعها.

قضى أبو القاسم عظوم كامل فترة الاحتلال النصراني بين تونس والقيروان، فقد ولد بُعيد استيلاء شارلكان على تونس وسلبها، ويغلب على الظن أن الشيخ عظوم كان بتونس يشتغل بالعدالة عند احتلالها ونهبها من طرف دون جوان. ثم كان بها أو استُقيم إليها سنة تخلصها من طرف سنان باشا فسُمِّيَ فيها مفتيًا مباشرة بعد تحريرها.

ومما لا شك فيه أن أبا القاسم عظوم وُلد في القيروان وتربى بها وأخذ العلم عن شيوخها في المراحل الأولية من تكوينه العلمي، وعاد إليها بعد ملاقاته لكبار شيوخ الزيتونة، وتزوج بالقيروان وأنجب أبناء وبقي بها أمداً غير قصير. فهو ابن القيروان وعائلته فيها راسخة في القدم مشهورة بالعلم منذ أكثر من قرنين قبل عهده.

عاش أبو القاسم عظوم بمدينة القيروان في عصر اضطربت فيه أحوال المدينة تبعًا لاضطراب المنطقة عمومًا ولما أصاب العاصمة تونس والعديد من الموانئ ومدن الشواطئ من سلبٍ وتشريد. كان من السهل على القوات النصرانية الاستيلاء على بعض الشواطئ والمرافئ والمدن الساحلية. أما مدينة القيروان فإنها عندما أُسست في القرن

الأول الهجري اختير لها أن تكون بعيدة عن أيدي القوات البحرية التي لم يكن المسلمون قادرين في ذلك التاريخ على مواجهتها. فبقيت القيروان عاصمتهم إلى أن امتلكوا القوة البحرية فانتقلت عاصمتهم إلى المهديّة ثم تونس. وعندما استشرّبت الخيانة في قلب الحسن الحفصي حاول الاستيلاء عليها، ولكنها هزمتها وامتنتعت منه (سنة 1535م) فجاءها بالجيش النصراني ليسلّطه عليها فيعاقبها بما عاقب به تونس ويستبيحها لهم. فانهزم أمامها (سنة 1540م) بالقوة الشعبية الشابية أولاً ثم بالقوتين الشعبية والعثمانية عندما آلت دويلة عرفة الشابي إلى الانحلال (بعد قيامها بعشرين عام سنة 1558م) نتيجة ظروف داخلية وخارجية. وبقيت مدينة القيروان منيعة على النصارى بسبب تكامل شعبها مع الحامية التركية مما ضمن لها السلامة<sup>16</sup>.

ففي مدينة القيروان وخلال قيام السلطة الشابية وُلد أبو القاسم عظم وقضى فيها مرحلة تكوينه العلمي الأساسي ثم مرحلة هامة من حياته قبل أن ينتقل إلى تونس. مرّت حياة أبي القاسم عظم متقاسمة بين مدينتي تونس والقيروان وهما أهمّ المراكز الحضارية والعلمية بالبلاد التونسية. ولم نعرف له إقامة ولا انتساباً لغير هاتين المدينتين. فإذا كان انتسابه العائلي القديم إلى القيروان العتيقة فإن انتسابه أيضاً يكون إلى مدينة تونس لما كان له فيها من طلبٍ للعلم في جامع الزيتونة ولقاءاته فيها بالشيوخ في مراحل إكمال زاده بعد حصوله على الأسس العلمية من دروس جامع عقبة. ثم عاش بتونس وقضى فيها سنوات في وظيفة الإشراف تُضاف إليها سنوات الافتاء وهي 27 سنة. فقد عاش الرجل حياة تقاسمتها المدينتان ، فكان لهما فيه أثر، وكان منه فيهما تأثير، ونال في المدينتين مكانة علمية ودرجة ثقافية فقهية جعلت منه عنصراً أساسياً في

التقويم الحضاري للمدينتين في عصره. فلا تُذكر مكارم القيروان في القرن 10 هـ / 16م دون التركيز والإشارة إلى شخصية أبي القاسم عظوم، ولا يتحدث دارس ومؤرخ عن مدينة تونس ورجالاتها في نفس العصر دون الإشادة به وجعله في طبيعتهم، بل ويتّوج به جبين ذلك العصر على ما به من ضعف وانحلال وشُحّ في المثقفين والعلماء.

لقد نال أبو القاسم عظوم درجة علمية استطاع بها أن يشتهر بسعة نظره وحسن اجتهاده في المسائل الفقهية وتميّزه على فقهاء زمانه بمعرفة النصوص الفقهية مع إتقان فهمها وتوجيهها وتصويبها والاستفادة منها. مما سنحاول تناوله في هذا البحث. وإذا كان مغوش التونسي شرّق في هجرته ووجد عناية أكبر عند ملوك المشرق حتى مات هناك. ثم إذا كان محمد خروف التونسي شرّق ثم غرب في رحلته وحظي برعاية من ملك المغرب الذي خّصه من الأسر وفسح له في فُرص الإشعاع الثقافي إلى أن مات هناك ، فإن أبا القاسم عظوم لم يغادر بلده ومدينتيه ولم نجد ما يدل على سفره خارج المسافة بين مدينتيه تونس والقيروان.

عندما يطالع القارئ لأجوبة عظوم وفتاويه يلاحظ أن الرجل ارتبط بالمدينتين ارتباطاً وثيقاً في ما يظهر من عنايته بهما ومعرفة لهما. فهو يتتبع دقائق أخبارهما ويتحدث عنهما حديث العارف بالأشخاص والعادات والأسواق والأحياء والشوارع وحتى بيوت العائلات والأفراد. ويظهر ذلك في أجوبته عن الأسئلة التونسية والقيروانية. كما يظهر ذلك واضحاً عندما نقرأ أخبارهما الواردة في كتابه ونقارنها بتلك الأخبار التي تخص المُدن الأخرى مثل سوسة و صفاقس وباجة وجزيرتي جربة وقرقنة وغيرها من المراكز الحضرية والبدوية. وبالجملة فإن المطالع لكتابه يلاحظ معرفته الدقيقة والواسعة



بمدينتيه القيروان وتونس اللتين قضى في كل واحدة منهما قرابة نصف حياته. ففيهما نال زاده العلمي الثقافي، وفيهما أُنِع إنتاجه العلمي الثقافي، كما وجد من أبناء مدينتيه الاعتراف بفضلِه والتقدير لعلمه. وبقي فيهما رغم أنه لم يجد فيهما مَلْكَاً يقربُه أو يُغدق عليه، ولكن وجد فيهما عزّة نفسه - وهو المفتي المشهور - جعلته رغم فقره لا يأخذ مقابلاً لفتاواه أكثر مما يكفيه قوت يومه هو وعائلته الصغيرة.

### عائلة آل عظوم أو العظاظة بين القيروان وتونس:

تتوافر في أكثر العواصم العلمية والمراكز الحضارية في العالم الإسلامي عائلات تشتهر بالعلم والثقافة، تحاول طبقات من أبنائها الحفاظ على رصيدها العلمي فتتوارث تلك المكانة على مرّ أجيال قد تطول وقد تقصر حسب ارتباط أبنائها بخصائصهم الثقافية التي قد تُبقي بعضها على شهرتها قرناً أو قرنين، وقد تزيد على ذلك فيطول زمن المجد العلمي لبعض العائلات خمسة قرون أو أكثر. توجد أنماط من هذه العوائل التي يطول عمرها في الثقافة في أغلب العواصم الإسلامية، سواء في الشام أو في مصر أو في بلاد المغرب عامة. وفي تونس يمكن أن نشير إلى عائلة الرصاع التي امتدت حياتها العلمية أكثر من ستة قرون. ثم في القيروان يمكن أن نعدّ عائلة آل عظوم من العوائل التي طال عمرها في الميدان العلمي أيضاً. فقد ظهر علماؤها الأوّل في القرن الثامن الهجري وامتدّ مجدها العلمي إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري. فتكون حياتها دامت خمسة قرون، يُضاف إليهم بعض العلماء وأهل الاختصاص في القانون الوضعي من المعاصرين لنا اليوم.

في عصر أبي القاسم عظوم اشتهرت عائلات علمية كثيرة في تونس تعيش معها الرجل وتعامل بأوجهٍ مختلفة من الاتفاق والاختلاف تظهر لنا من خلال مطالعتنا لكتاب الأجوبة. كانت أشهر هذه العائلات العلمية بتونس في ذلك العصر هي:

- آل الرصاع ( الرصاصعة ).

- عائلة النفاتي ( النفاقة ).

- عائلة المسراتيين .

- عائلة البكريين .

- عائلة الأندلسي .

أما مدينة القيروان العاصمة الأقدم في البلاد التونسية فقد ظهرت فيها عدة من العائلات العلمية في ذلك العصر من أشهرها :

- عائلة عظوم (العظاظة).

- عائلة الغريانيين ( الغراينة ) .

- عائلة العوانيين .

- عائلة العلوينيين .

- عائلة الخضراويين .

أبو القاسم عظوم ينتسب إلى عائلة علمية قيروانية عاش أبنائها جميعا في مدينتهم. وإذا كان قد قدم أغلبهم إلى تونس لغاية طلب العلم وإتمام الحصول على ما توفر من زادهم في مدينة تونس وفي جامعها الأعظم الزيتونة، فإن تراجمهم الواردة في الكتب لم تذكر لأي رجلٍ منهم ولاية لوظيفة في غير القيروان، إلا شخصية أبي عبد الله محمد

بن محمد بن عظم الذي تولّى قضاء قفصة ثم قضاء القيروان ( في القرن 8 هـ / 14 م ). ولم تذكر المصادر لأي رجل منهم إقامة طويلة بتونس غير رجل واحد كانت إقامته طويلة فيها وهو أبو القاسم عظم الذي تولّى الإفتاء فيها أمداً طويلاً إضافة إلى سنوات من العمل في الإسهاد، مع سنوات أخرى في طلب العلم. أما بقية آل عظم فإن تراجعهم جاءت في أغلبها ضمن كتبٍ خُصّصتْ اهتماماتها لأهل القيروان وأخبارهم، مثل كتاب التكميل للكناني القيرواني، وكتاب تاريخ قضاة القيروان لمحمد الجودي القيرواني، مع ما وُجد عرضاً في مؤلفات أبي القاسم عظم وخاصة أجوبته التي عرّفنا بالعديد من أبناء العظيمة المعاصرين له وهم من أبنائه وإخوانه وأبناء إخوانه وغيرهم.

تتنظم علاقة العظيمة بالقيروان ضمن علاقة كل العائلات القيروانية ببلدها في ذلك العصر، فإن لهم أملاكاً وأوقافاً بالمدينة. نقل أبو القاسم عظم في الأجوبة نصّ إسهاد مؤرخ بسنة 1002 هـ / 1594م متعلق بخلاف حول إرث حانوت بالقيروان ما نصه: "... جميع الحانوت القبلي المفتّح الكائن بسوق الغمّادين يحده شرقاً حانوت من أوقاف أولاد ابن عظم"<sup>17</sup>. كما كانت لهم مقبرة خاصة بهم توجد بحومة الجامع قرب ضريح علي الأنصاري. ونلاحظ أيضاً أن العظيمة تولّوا في أغلبهم وعلى مرّ هذه القرون الوظائف الشرعية والقضائية وجميعها في مدينتهم القيروان. كما لا نعرف لواحدٍ منهم - قديماً - إقامة دائمة في غير القيروان إلا لثلاثة منهم وهم الجد الأعلى محمد بن محمد الذي تولّى قضاء قفصة، والشيخ أبو القاسم عظم في إقامته الطويلة بتونس للإفتاء، وابن أخيه تاج الدين بن عبد الجليل الذي كان متأهلاً ومستوطناً بسوسة سنة 1009 هـ / 1600م حسب رواية أبي القاسم في أجوبته<sup>18</sup>.

لقد أمكننا أن نتعرّف على ستة وعشرين رجلاً عالمًا أو مثقّفًا ينتسب جميعهم إلى هذه العائلة، تختلف درجاتهم في الشهرة العلمية، نتيجة لما لهم من إنتاج علمي من المؤلفات أو نتيجة لوظائفهم في الإفتاء أو القضاء أو الشهادة أو الخطابة في مدينة القيروان خاصة. وعائلة عظم اشتهرت بالعلم في المجتمع التونسي وفي مدينة القيروان خاصة. يقول الكناي عنها في تكميل الصلحاء والأعيان، لمعالم الإيمان، في أولياء القيروان عند ترجمته سيف الدين بن عظم: « وهو من بيت في العلوم متقنّين، وبإخلاصهم فيه محسنين»<sup>19</sup> . ويصفهم حسين خوجة في بشائر أهل الإيمان، بفتوحات آل عثمان بأنهم «سلالة علماء أعلام»<sup>20</sup> ويذكرهم محمد مخلوف في شجرة النور الزكية، في طبقات المالكية بأنهم « بيت علم وفضل »<sup>21</sup> .

وبقي في المجتمع القيرواني مثلٌ يدلّ على وفرة علماء هذه العائلة وتولّيهم أغلب الوظائف الشرعية بالقيروان من قضاة ومفتين، والمثل على لسان امرأة قيروانية تقول: «القاضي عظمي والمفتي عظمي، ولشكّون (لمن) نشكي يا شومي (يا ويلي)»<sup>22</sup> .

### المتقنون والعلماء من آل عظم :

ورغم توقّر بعض الباحثين والمؤرخين الذين كتبوا بعض الدراسات فيها عناية بهذه العائلة فإننا لم نرَ بحثًا وضع قائمة تجمع علماء العظاظمة مما جعلني أحاول أن أقوم بذلك وأضع هذه القائمة الأولية لهم إبرازًا لأهميتهم في مجتمعهم القيرواني ثم التونسي. ولم يمكنني ذلك إلا بعد مطالعة وافية للعديد من المصادر ثم إنهاء قراءة الأجزاء العشرة

من مخطوطات كتاب الأجوبة لأبي القاسم عظوم. وبعد ذلك استطعتُ أن أقول : سمحتُ لنا المصادر بأن نتعرّف على ستة وعشرين مثقفاً وعالمًا ينتسب جميعهم إلى العائلة العظومية خلال ستة قرون من تاريخ البلاد التونسية. أولهم عاش أغلب القرن الثامن الهجري وتوفي سنة 782 هـ / 1280 م، وآخرهم عاش أغلب القرن الثالث عشر الهجري وتوفي سنة 1284 هـ / 1867م.

من بين هؤلاء المثقفين الستة والعشرين نلاحظ وجود ثلاثة عشر قاضيا من قضاة القيروان وخمسة مفتين بها، منهم أربعة جمعوا بين وظيفتي القضاء والإفتاء، وثلاثة خطباء بجامع الزيتونة بالقيروان، ثم ثمانية من الموثقين والشهود ومجرّد مثقفين فقهاء. ولعل أكثر الوظائف التي تولاها العظاظمة هي وظيفة القضاء ثم وظيفة التوثيق. ومن خلال قراءة ترجماتهم يمكن أن نجد بعض النوادر في توالي القضاة بين مختلف الأجيال وطبقاتهم. ومثال ذلك يرد ذكر القاضي محمد ابن القاضي قاسم ابن القاضي محمد ابن القاضي عبد الله حفيد القاضي محمد ابن القاضي الناصر ابن القاضي عبد الجليل ابن القاضي محمد مرزوق ابن القاضي عبد الجليل عظوم. ومحمد مرزوق المذكور قبل الأخير هو والد أبي القاسم عظوم صاحب الأجوبة.

وهكذا تعدّد في المجتمع القيرواني العظاظمة من أصحاب وظائف القضاء بالإضافة إلى المفتين والشهود الموثقين على مدى قرون متوالية. وطيلة هذه القرون الأخيرة كان الكثير من القضايا المعروضة على الحكم الشرعي في القيروان تُعرض على نظر قاضٍ عظيمٍ أو مفتٍ عظيمٍ أو شاهدٍ وموثّقٍ عظيمٍ، ولذلك ظهرت عند

القيروانيين تلك المقولة الدالة على وجود القاضي العظومي والمفتي العظومي في كل مراحل عرض القضايا على المحاكم الشرعية.

إن الناظر في تراجم هؤلاء المثقفين من العظاظة الستة والعشرين يجد أنهم يختلفون في درجات ثقافتهم الفقهية أي درجة علمهم. وإذا كنا لم نجد مصدرًا واحدًا يتّهم بعضًا منهم بالجهل أو بما يحطّ من مكانتهم العلمية والأخلاقية فإن ذلك يدلّ على القيمة الاجتماعية للعائلة، وهي قيمة تناقلتها الأجيال القيروانية بناءً على ما عُرف عنهم من قيمٍ عالية في سلوكهم وثقافتهم الفقهية. وإذا كان من بين العظاظة العديد من القضاة والمفتين الذين وُصِفوا بالعلم فإن مصادر ترجماتهم من كتب الطبقات والتاريخ والفقهاء خصّت بعضًا منهم بأخبار هامة عن حياتهم ومؤلفاتهم ومكانة ثقافتهم في الأدب الديني أحيانًا وفي الأنواع العديدة من فنون الفقه. نخصّ بالذكر منهم أربعة من علماء العظاظة اشتهر علمهم في أزمنتهم وبقيت آثارهم دالة عليهم، لأنهم تركوا للمكتبة القيروانية الفقهية مؤلفات تعددت عناوينها وتنوّعت اختصاصاتها في مختلف مجالات العلوم الفقهية على المذهب المالكي.

أولهم محمد بن أحمد بن عيسى بن أحمد بن عبد العظيم بن فندار بن عظوم. كان حيًّا في نهاية القرن التاسع الهجري، هو الجد الثاني لمؤلف الأجوبة. تتلمذ على الإمام البرزلي وتأثر بطريقته في الدراسة والتأليف. اشتهر بالعلم والأحكام الجريئة مثل قوله بوجوب استرجاع الأموال التي يحصل عليها الموظف السامي من السلطان سواءً عن طريق الرشوة أو الاستيلاء إلا ما استحقّه الموظف بعمله<sup>23</sup>. وقد وصفه ابنه عبد الجليل بأنه كان شديد الشكيمة سريع الإنكار على الولاة. له مؤلفات كثيرة أغلبها في الفقه

المالكي أحصاها الباحث محمد الرايس فكانت تسعة وعشرين كتابا أهمها كتاب المسند المذهب، في ضبط قواعد المذهب<sup>24</sup>. ولمحمد بن أحمد عظوم هذا كتاب المباني اليقينية، في حكم المسألة العيودية، الذي نقل عنه أبو القاسم بن عظوم كثيرا في أجوبته. وله كتاب الدكّانة الذي ردّ به على الشيخ العلوي في خلاف فقهي. وشروح وحواشٍ ومختصرات لكتبٍ فقهية كبيرة. كما ألف كتابا ورسائل في موضوعات فقهية متنوعة<sup>25</sup>. يقول عنه صاحب شجرة النور الزكية إنه كان حيا سنة 889 هـ / 1484 م<sup>26</sup>.

ثانيهم عبد الجليل بن محمد بن أحمد بن عيسى بن عظوم المتوفى 960 هـ / 1533 م. وهو جد أبي القاسم صاحب الأجوبة. اشتهر عبد الجليل هذا بالعلم والصلاح وانتشر صيته بظهور كتابه " تنبيه الأنام، في بيان علو مقام نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام " اشتهر كتابه هذا في مجتمعه واعتُبر مصدرا هاما لأعمال بعض الزوايا الصوفية وخاصة زاوية أبي الغيث القشاش بتونس. وحُبّست على قراءته الأحباس الكثيرة الهامة حتى أن المشير أحمد باي الحسيني عند إدخاله الإصلاحات على التعليم بجامع الزيتونة سنة 1265 هـ / 1848 م أجرى ريع أوقافٍ على رواية كتاب تنبيه الأنام وكتب أخرى بالجامع الأعظم يُصرف الربيع في مرتبات المدرسين من الطبقة الثانية (وعدددهم اثنا عشر مدرسا). وكتاب " تنبيه الأنام" يقع في أربعة أجزاء يعتبر من الكتب التي اشتهرت في المشرق والمغرب<sup>27</sup>. ولعبد الجليل عظوم مؤلفات أخرى في نفس الموضوع منها رسالة عنوانها الجواهر المفصلات في الأحاديث الأربعينات<sup>28</sup>.

وثالثهم عبد الجليل (الثاني) بن محمد مرزوق بن عبد الجليل بن عظوم، هو أخو

أبي القاسم مؤلف الأجوبة. كان عبد الجليل حيا وكان قاضيا بالقيروان سنة 984 هـ / 1576م. ذكره أخوه في الأجوبة مرارا وقال عنه مرة: أخي الشيخ القاضي المفتي المحقق<sup>29</sup>. ولعبد الجليل هذا رسالة في مناقب مالك، منها نسخة في مكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر.

رابعهم أبو القاسم عظم صاحب الكُتب الفقهية العديدة والكبيرة. نخصّ ترجمته بدراسة مناسبة في هذا الكتاب نتناول فيها شخصيته ومؤلفاته وخاصة كتاب فتاويه المعروف بالأجوبة.

## سلسلة المثقفين من آل عظم

محمد بن أحمد  
فقيه له مؤلفات

محمد بن محمد بن عبد الجليل  
قاضٍ معاصر لابن عرفة



كان حيا 889 هـ / 1484

ت 782 هـ / 1380

محمد بن علي  
فقيه  
ت 1006 هـ / 1597

عبد الجليل بن محمد  
عالم له مؤلفات  
ت 960 هـ / 1533

محمد مرزوق بن عبد الجليل  
قاض  
1603 هـ / 1012

عيسى بن مرزوق فقيه 1593 هـ / 1002	أبو القاسم بن مرزوق مفت له مؤلفات 1601 هـ / 1009 ...	عبد الجليل بن مرزوق قاض له مؤلفات 1576 هـ / 984 ...	مسعود بن مرزوق فقيه 1587 هـ / 996
---	--	---	---

تاج الدين بن عبد الجليل  
فقيه موثق  
1588 هـ / 996

الناصر بن عبد الجليل  
قاض مفت  
1630 هـ / 1040 تقريبا

أحمد بن عظم  
فقيه  
1597 هـ / 1006

محمد بن أبي القاسم  
قاض مفت فقيه  
؟؟؟

سيف الدين بن أبي القاسم  
موثق  
1640 هـ / 1050

سعد الدين بن أبي القاسم  
فقيه موثق  
1597 هـ / 998 ...

محمد بن الناصر  
قاض  
1666 هـ / 1077

مالك بن الناصر  
قاض  
1650 هـ / 1060

حسين بن سعد الدين  
محقق  
1654 هـ / 1064

حسن بن حسين  
قاض  
؟؟؟

محمد بن حسن  
كاتب  
؟؟؟

عبد الله بن عبد اللطيف  
قاضي مفت  
1199 هـ / 1785

حسن بن عبد الله  
مفتق  
؟؟؟

محمد بن عبد الله  
قاضي مفت  
1199 هـ / 1785

قاسم بن محمد  
قاضي  
1261 هـ / 1845

محمد بن قاسم  
قاضي خطيب  
؟؟؟

محمد بن قاسم  
خطيب  
1284 هـ / 1867<sup>30</sup>

### أبو القاسم عظام المفتي وصاحب كتاب الأجوبة:

يعتبر أبو القاسم بن محمد مرزوق عظام صاحب كتاب الأجوبة من أبرز علماء هذه

العائلة ومن بين أكثرهم علما وإفادة وتأليفا.

اسمه :

أَضْبَطُ وَأَكْمَلُ ما يُعْتَمَدُ في عرض اسم المؤلف وسلسلة نسبه هو ما وجدناه بخطه مرتين متطابقتين في مخطوطتين لكتابه الأدلة المحكمة المجازة محفوظتين بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 9602 و13142 وفي غير ذلك من المخطوطات التي كُتِبَتْ بخطه. فهو : أبو الفضل أبو القاسم بن محمد مرزوق بن عبد الجليل بن محمد ابن أحمد بن عيسى بن أحمد بن عبد العظيم بن أبي بكر بن عياش بن فنّار المرادي القيرواني عُرف بابن عظوم . ويرى المستشرق بارك Berque أن نسبه المرادي يعود إلى بطن مراد من بني هلال، دون الإشارة إلى مصدره في ذلك. ولعلّه يقصد مراد بن ربيعة الذي كانت له الرئاسة على طي أيام العبيديين في إفريقية<sup>31</sup> .

من خلال كتاب الأجوبة والكتب الأخرى من مؤلفاته لم نجده يذكر اسمه المختصر إلا بما نصه: أبو القاسم بن محمد مرزوق بن عظوم إلا أنه يورد أحياناً التعبير المستعمل في بلاد المغرب " بلقاسم " . كما أنه - بصفة عامة - عند ذكره للقب العائلة يذكره على وجهين فتارة يورده " ابن عظوم " وتارة يحذف ابن فيورده " عظوم " . واستعمل الأمرين سواء في تسمية نفسه أو في تسمية أبنائه أو أفراد آخرين من العائلة كإخوانه وأبنائهم وغيرهم. فكلا التسميتين مستعملتان عنده.

أما المصادر القديمة والمراجع المعاصرة فإنها في الغالب تذكره باسم قاسم عظوم. وقد ذكره بهذا الاسم أقدم المؤرخين له من الذين ذكروه أو ترجموه، مثل ابن أبي دينار في كتابه المؤنس وحسين خوجة في ذيل البشائر والوزير السراج في الحلل السندسية ومحمد مخلوف في شجرة النور الزكية. وتبعهم في ذلك الكثير من الباحثين المعاصرين. وقد

اخترت في هذا البحث أن أذكره باسم أبي القاسم عظم.

### ولادته:

إنّ الأرجح أن يكون أبو القاسم قد وُلد بالقيروان كغيره من أبناء العظيمة الذين حافظوا على إقامتهم وتساكنهم بمدينتهم.

لم نعرف مصدرًا حدّد تاريخ ولادة أبي القاسم عظم ولم نجد في ما كتبه عن نفسه ما يحدد ولا ما يُقرّب هذا التاريخ، إلا أن الشيخ محمد الشاذلي النيفر يجعل ولادته في سنة 930 هـ / 1523 م تقريبًا. وهو ترجيح يتناسب مع الحوادث التي عاشها وعاشها

الرجل<sup>32</sup>.

وإذا كنّا نعرف أباه وجدوده للأب فإننا نجهل اسم أمه ، إلا أنّ نصوصًا وردت في كتابه الأجوبة تذكر خالين له وابنًا لأحدهما. الخال الأول يقول عنه: الشيخ خالي حسن اللبني من القيروان ويكرر ذكره في نفس الجزء<sup>33</sup> والثاني يذكره بقوله: خالي يونس الجربي الفخّار الآن بتونس<sup>34</sup> ، فهل هما خالاه وهما أخوان غير شقيقين؟ ويذكر ابن خاله عباس بن حسن اللبني ويصفه بالفقيه. كما يذكر ابن ابن خاله هذا واسمه حسن خلال حديثه عن خاله المذكور أولاً.

### مراحل حياته وتنقلاته :

لعله لا يقوم شك في أن أبا القاسم عظم جمع أصول ثقافته الفقهية وغيرها في مختلف العلوم من مدينة القيروان التي كانت تعجّ بالعلماء والفهاء والقضاة والمؤثّقين وغيرهم على مختلف مستوياتهم. ولا شك أنه درس بها على شيوخ منهم علماء آل عظم

ومن بينهم أخوه للأب الذي يقول عنه في الأجوبة: " شيخنا الشيخ أبو مهدي عيسى عظوم، وهو أخي للأب<sup>35</sup> .

إلا أن مدينة تونس كانت في مرحلة شبابه ملتقى لطلاب العلم رغم ما أصابها من فواجع حضارية ، وأن الطبقة الرابعة من مدرسة ابن عرفة ما زالت تروي - على استحياء - أقوال الفقهاء السابقين وما زالت تروي أمجاد حياتها الأولى . فمن الطبيعي بل ومن المعمول به في ذلك العصر أن يقصدها القيروانيون لإكمال الزاد العلمي وللنقاش وإثبات الذات مما يتمّ التكوين العلمي ثم يعودون إلى مدينتهم مستفيدين وتاركين في تونس آثارَ طلبهم وآرائهم ومناقشاتهم دون أن يقوم بين المدينتين تراحم ولا صراع ولا تفاضل.

وإنّ المتابع لعلاقة أبي القاسم عظوم بمدينة الأولى القيروان يلاحظ في ما كتبه عنها معرفته الدقيقة لها ولأبنائها ورجالها وتقديره لكثير من مثقفيها المعاصرين له. فهو يذكرهم ويحدد أسماءهم وقيمهم العلمية ويستفيد من أقوالهم وشهاداتهم في الكثير من أسئلة الفتاوى الموجّهة إليه.

ويبدو أن أبا القاسم رحل إلى تونس في أول حياته فأضاف إلى زاده القيرواني ما أخذه عن شيوخها كالشيخ أحمد العيسى التونسي ( ت 972 هـ / 1564 م ) تلميذ الشيخ مغوش<sup>36</sup> . ويبدو أيضاً أنّ أبا القاسم عظوم عاد إلى مدينته القيروان حيث تزوج وأنجب ابنه سيف الدين وسعد الدين وبقي على علاقة متواصلة مع عائلته الصغيرة بها رغم طول سنوات انتقاله إلى تونس وإقامته بها. وكبر أبنائه بالقيروان فكانوا فقهاء وموثقين يزورونه المرات العديدة فيكونون ضيوفاً عليه في بيته بتونس.

أقام أبو القاسم عظوم بتونس وانخرط في عدولها. وهو ما أخبرنا به حسين خوجة فقال: " كان في الأصل من عدول تونس ثم تولى فتيا المالكية بها " <sup>37</sup> كما يذكر بلديّه المؤرخ القيرواني محمد الكناني صاحب تكميل الصلحاء <sup>38</sup> أنه رحل إلى تونس وأقام بها سنين عديدة وتولّى الفتيا بها. ويذكر أبو القاسم عظوم نفسه أنه تولّى إفتاء مدينة تونس في أواخر شعبان عام اثنين وثمانين وتسعمائة [ 982 هـ / ديسمبر 1574 م ]. <sup>39</sup> ويفاجئنا الوزير السراج في الحلل السندسية بنص داخل ترجمة عثمان داي يقول فيه: " ووقف صهره الزهاني (أي صهر عثمان داي) على الشيخ قاسم عظوم، وكان عدلا فاضلا، ليكتب له رسما في قضية هي على خلاف المشهور من المذهب، فامتنع الشيخ من الكتب. فرفع الزهاني القضية للداي، وكان للداي غرضٌ فيها، فأرسل خلف الشيخ عظوم المذكور وقال له : مالك امتنعت من الامتثال ؟ فوعظه وعظا أخذ بمجامع قلبه إلى أن انقاد الداي إلى طريق الصواب حتى قال له : ما رأيتُ أحداً أليق بطريق الفتيا منك، وما خرج من عنده إلا مفتياً " <sup>40</sup>.

نلاحظ أن عثمان داي تولّى حكم البلاد سنة 1007 هـ / 1598 م وأنه لم يكن هو الذي سمّى الشيخ أبا القاسم عظوم في وظيف الفتوى، وإنما في النص السابق ما يدلّ على أنه أقرّه فيه اعترافا بشجاعته وفضله وعدله. وتذكر المصادر أيضا أن له نوادر غريبة تُحكى عنه في أيام فتواه. وأنه كان ذا عيال وأولاد، فقيرا جدا، تُعرض عليه الدراهم الكثيرة في ما يُفتيه فيمتنع من قبولها ولا يأخذ إلا قدر ما يكفيه ليومه <sup>41</sup> ومما يدل على نزاهته في فتواه ما ذكر من أنه استُفتي في مسألة كانت زوجته فيها طرفا فرفض الإفتاء

على الرغم من إقامته الطويلة بمدينة تونس فإنه لم ينقطع عن مسقط رأسه القيروان. والمطالع لمختلف أجزاء كتابه يلاحظ أنه كثيرا ما يذكر رحلاته بين المدينتين قائلا: إن كل رحلة منها كانت لزيارة الأهل أو الأولاد. وقد جمعنا بعض ما ذكره من رحلات إلى القيروان فكانت في التواريخ التالية :

في ذي الحجة 982 هـ / مارس 1575 م.

في محرم 983 هـ / أبريل 1575 م.

في رمضان 985 هـ / نوفمبر 1578 م.

في أواخر 985 هـ / فيفري 1578 م.

في أواسط صفر 986 هـ / أبريل 1578 م.

في رمضان سنة 995 هـ / أوت 1587 م.

ولعل هذا يشير إلى أنه كان مُعَدِّدًا له زوجتان، فهو صاحب بَيِّنَتَيْن أولهما بالقيروان والثاني بتونس. نضيف إلى ذلك الإشارة إلى أن بعض أبنائه الكبار في السن كانوا يقيمون بالقيروان فيرسلون إليه أسئلتهم الفقهية التي استعصت عليهم خلال وظائفهم الشرعية، كما كان بعض أبنائه يأتونه إلى مسكنه بتونس فيزورونه مرارًا ويقيمون عنده للضيافة.

أما ابناؤه المثقفون الذين ذكرهم في كتابه فهم : سيف الدين وسعد الدين ومحمد

وقد جاء ذكرهم في قائمة مثقفي العظاظمة. كُبر ابنه الأولان بالقيروان فكانا من فقهاءها والموثقين فيها يزورانها المرات العديدة فيكونان عنده في بيته بتونس. وكان ابنه سيف الدين أكثر صلة علمية بأبيه، فقد ذكره في الأجوبة عشرات المرات سواء بمناسبة وصول العديد من الأسئلة التي عُرضت عليه من سيف الدين نيابة عن أصحابها، أو يذكره كشاهد في قضية، أو تأتيه أسئلة من بعض أصحاب سيف الدين. كما يذكر زيارته المتعددة إلى والده بتونس إما للضيافة أو لأغراض أخرى مثل تلك التي جاء فيها تونس لشراء أسباب سفره إلى الحج سنة 1007 هـ / 1598 م فاصطحبه والده إلى جلسة قضائية انعقدت في جامع القصبية اجتمع فيها أبو القاسم عظم مع الشيخ الحاج سالم النفاتي لجواب على قضية طلبه الباشا خضر في الجواب عنها<sup>43</sup>. كما تعدد ذكره لابنه سعد الدين في مناسبات شبيهة بالسابقة. ولأبي القاسم عظم ولدٌ ثالث اسمه محمد قال عنه إنه قاضٍ ومفتٍ وفقهٍ ولم نعرف عنه أخبارًا أخرى، ولسنا ندري إن كان من الزوجة الساكنة بالقيروان أو من الزوجة الساكنة بتونس. ويذكر أبو القاسم عظم مرة أن له ابنة اسمها شمسية، تزوجت من عبد الله ابن الحاج أحمد بكار<sup>44</sup>.

### محلّ عمله ومسكنه بتونس :

من خلال النصوص التي قرأناها في مخطوطات الأجوبة تبين لنا أن للمؤلف محلّ عمل هو حانوت يأتيه فيه الناس للشهادة أو الاستفتاء، ولم يحدد موقعه. فقد قال في إحدى مسائل الجزء الأول : " الحمد لله ، وقف عليّ بالحنوت ... القارئ قاسم بن محمد القصّار"<sup>45</sup> والثابت أن هذا الحانوت يقع في مدينة تونس لأن قضية الحال وقعت بين



مدينتي رأس الجبل وبنزرت.

كما وجدناه يذكر محلّي سكنى إقامته بمدينة تونس. فقد سكن في مسكنين أحدهما كان قُرب سوق الكمّادين وثانيهما عند مسجد القبة. ونحن لا نعرف سوقًا يحمل اسم الكمّادين بتونس ولم نجد له ذكرا في المصادر المعروفة من تاريخ مدينة تونس ولا من الخرائط القديمة لها غير ما وصفه المؤلف أبو القاسم عظم، حيث ذكر في الجزء السادس من الأجوبة في نهاية مسألة منه فقال: " وافق الفراغ من نقله عام 1001 هـ بيد كاتبه مؤلفه أبي القاسم بن محمد مرزوق... على ضوء السراج بدار الكمّادين داخل باب قرطاجنة من تونس " <sup>46</sup>. ويذكر مسكنه بالكمّادين مرة أخرى فيقول : سألني إبراهيم بوغدير جارنا بالكمّادين في أواخر صفر 1003 هـ <sup>47</sup>. وقد ذكر هذا السوق الأستاذ توفيق البشروش اعتمادًا على بعض عقود الأحباس <sup>48</sup>. ولعل هذا السوق كان مخصّصًا للكمّادين وهم الذين يكمدون الثياب الجديدة الصنع فيدقونها لتلتئم خيوطها <sup>49</sup>.

ويبدو أن أبا القاسم عظم انتقل بالسكنى بعد سنة 1003 هـ/ 1594 م إلى مسكن

آخر داخل مدينة تونس، فقد ذكر في أجوبته (ج 6 و 7 المخطوط رقم 4854 الورقة 68 ب) أنه يسكن قرب مسجد القبة عند تربة الباي حيث قال ما نصه : سألني عمران عُرف الشيخ قرب دارنا بمسجد القبة من فوق، في جمادى الثانية سنة 1006 هـ / 1597 م. ومسجد القبة «مسجد القبة» يقع في جنوبي المدينة ولعله الكتاب الذي تعلّم فيه ابن خلدون

القرآن <sup>50</sup>.

### أبو القاسم عظيم كما وصفته بعض المصادر :

وصفه حسين خوجة في ذيل البشائر بقوله : الفاضل المحقق فريد عصره ونسيج

وحده<sup>51</sup> . وقال عنه الكناني في التكميل : هذا فحل المغرب في العلوم الفقهية، المحقق

الشيخ الفاضل، من كان على تحقيق الفروع يناضل، وله الباع الذي يسلم في وقته

بالإجماع، مع معاصريه بلا دفاع ولا نزاع... وكان كل فقهاء الوقت عيالا عليه وهو

عمدتهم ومن بعده فكُتِبَ هي عُدَّتْهم<sup>52</sup> .

وقال محمد بن عثمان السنوسي في مسامرات الظريف : كان عالما بفقهِ مذهب مالك

وأبي حنيفة وإليه المرجع فيهما<sup>53</sup> .

ووصفه محمد النيفر في عنوان الأريب بأنه بحر المنقول والمعقول من العلوم<sup>54</sup> .

**خطه :** من خلال مطالعاتنا لمخطوطات مؤلفات أبي القاسم عظيم أمكننا أن نتعرّف على

نصوص كتبها المؤلف بخطه هي :

- كامل مخطوط الجزء الخامس من كتابه الأجوبة المحفوظ بدار الكتب الوطنية بتونس

برقم 18534.

- كامل مخطوط الجزء السادس من كتابه الأجوبة المحفوظ بدار الكتب الوطنية بتونس

برقم 44.

- مجموعٌ يشتمل على رسالتين صغيرتين من تأليفه محفوظ بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي

النيفر تحت رقم 310 وهما كتاب الجزية وأحكام أهل الذمة وقطعة من تخميس صغير لقصيدة

الشقراطسي.

- مخطوطان من كتابه الأدلة المحكمة محفوظان بدار الكتب الوطنية بتونس برقم



صورة مقدمة رسالة في الجزية من تأليف أبي القاسم عظم وهي بخطه وفي أولها

يورد اسمه كاملاً. والمخطوط محفوظ بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر برقم 310.

### وفاته :

لم يحدد المترجمون لأبي القاسم عظم تاريخا لوفاته بل اكتفى أغلبهم بذكر أنه

كان حيا سنة 1009 هـ/1601م. ولعلمهم جميعا اكتفوا بما دلّت عليه نصوص الأجوبة

التي لم نجد فيها جوابا واحدا أرّخ بعد هذه السنة. ولعل آخر الأجوبة هو ذلك الذي أرّخ

بمنتصف رجب 1009 هـ/جانفي 1601 م الوارد في المخطوط رقم 49 بالورقة 8 أ.

ويفاجئنا تعليق كتبه الشيخ محمد الشاذلي النيفر بخطه - الذي نعرفه - على

ورقة غلاف نسخته من الأجوبة المحفوظة بمكتبته (وهي من الجزء العاشر) نصه : «

نبذة من أجوبة الشيخ أبي الفضل بلقاسم ابن الشيخ محمد مرزوق ابن الشيخ عبد الجليل

عظوم. توفي الشيخ عظوم سنة 1013 هـ « دون تحديد للشهر ولا لليوم.

ثم إنَّ الشيخ محمد الشاذلي النيفر في بحثه الذي أصدره في النشرة العلمية للكلية الزيتونية بعنوان « تراجم خليل لعظوم والطرق التقريبية للفقہ ». يقول: وبعد البحث الطويل تمكنتُ من الوقوف على تاريخ وفاته وأنها سنة 1013 هـ / 1604-1605 م<sup>55</sup>.  
ويذكر الباحث الطاهر الرزقي في رسالته التي أشرف عليها الشيخ محمد الشاذلي النيفر في ص 99 أن الشيخ أكد له أن وفاة أبي القاسم عظوم كانت سنة 1013 هـ / 1605-1604 م مضيفا أنه وجد ذلك في بعض الكناشات المخطوطة ولم يعينها له. وعلى كل فإن تحقيق أمر تاريخ الوفاة لا يزال يحتاج إلى بحث. وعلى الرغم من ثقتنا في صحة ما كتبه الشيخ محمد الشاذلي النيفر وما رُوي عنه فإنه لا بد من ملاحظات نبديها:

أ ( هذا التاريخ يحدّد السنة ولا يحدّد الشهر ولا اليوم.

ب ( يذكر الشيخ أنه بعد البحث الطويل وقف على ذلك، ونحن لا نشك في صحة قوله ولكن ليس بين أيدينا نص نحتجّ به.

ج ( لم يكن الشيخ متيقناً من المسألة لذلك نراه يصرّح بأن الأمر يحتاج إلى تحقيق وبحث.

د ( لم يذكر الشيخ مصدره في ذلك، ولعله قصد إرجاء الأمر للمزيد من التحقيق.

أما مكان وفاة أبي القاسم عظوم ودفنه فلم تذكر لنا المصادر القديمة شيئاً عن ذلك، واختص الكنانى القيرواني بهذه الرواية وهي « وأبّ إلى بلده القيروان ففرحت

لإيابه أوطانها، وأينعتْ بعلومه عيدانها، ثم بعد ذلك لا يُعلم هل رجع إلى الحاضرة وتوفي بها أو بقي على إقامته بالقيروان ؟ والذي يترجح عندي من شِقِّي الاحتمال ما أخبرني به أحد مشايخ العظاظة أنه مات بالقيروان بعد المائة العاشرة ودُفن بتربتهم... وأراني قبره بها وعينّه لي»<sup>56</sup> . وكان الكنائي قبل ذلك حدّد مكان مقبرة العظاظة وقال عنها « هي بحومة الجامع التي قرب ضريح الولي الصالح سيدي علي الأنصاري، ونقلتُ هذا من أحد فقهاء العظاظة»<sup>57</sup> .

#### مصادر ترجمة أبي القاسم عظوم :

حسين خوجة : ذيل بشاير أهل الإيمان 183 - 184.

الوزير السراج : الحلل السندسية 2: 345 - 346.

الكنائي : تكميل الصلحاء والأعيان 25 - 26.

السنوسي : مسامرات الظريف 2 : 155

البغدادى : إيضاح المكنون 2 : 455.

بروكلمان : تاريخ الآداب العربية، الملحق الثاني 2 : 693.

برنامج المكتبة الصادقية ( العبدلية ) 4 : 274، 301.

مخلوف : شجرة النور الزكية 1: 292.

كحالة : معجم المؤلفين 8 : 124.

محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين 3 : 401 - 403.

النيفير ( الشيخ محمد الشاذلي ) : تراجم خليل لعظوم والطرق التقريبية للفقه.  
 بحث صدر في النشرة العلمية لكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس، العدد  
 الأول سنة 1971 ص 97 - 168.

النيفير (الشيخ محمد الشاذلي) : بلقاسم عظوم والبرامج الفقهية. بحث نُشر في  
 مجلة جوهر الإسلام (السنة الثانية 1970) الأعداد 2 و 6 و 7 و 8.

محمد الطاهر الرزقي : متطلبات الشهادة على المشهود عليه، رسالة قُدمت لكلية  
 الشريعة بتونس سنة 1401 هـ / 1981 م، وقد احتوت على أكمل وأدق ترجمة  
 وُضعت لابن عظوم.

أحمد قاسم : أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم. رسالة  
 قُدمت لكلية الآداب بتونس سنة 1983 م.

### **مؤلفات أبي القاسم عظوم:**

عرفنا من مؤلفات أبي القاسم عظوم عشرة بين كتاب ورسالة نعرضها مع

تعريف موجز ومناسب لغايتي من هذا الكتاب.

## 1 ( الأجوبة : وهو كتاب فتاواه الذي يعتبر أكبر مؤلفاته نخصه بالتعريف

بعد نهاية هذا الفصل.

## 2 ( الأدلة المحكمة المجازة، في افتقار التبرعات إلى القبول مع

### الحياسة:

هو كتاب وضعه لتوضيح مشكلٍ فقهي حدث بتونس واختلف فيه الفقهاء حول مسألة هي : إذا خلا الحبس من القبول الذي يجب أن يصدر على المحبّس عليه ، وإذا لم يقع القبول وحكم حاكم بصحة الحبس فهل يكفي فيه الحوز؟ حدثت المسألة في حبسٍ وقف على الزاوية العروسية وجامع الخطبة الواقع خارج باب الجزيرة في عصر حسين باشا. وضعه المؤلف ردًا على فتوى الشيخ علي عبيد الحرار والقاضي عبد الرحمن بن مصطفى. قال المؤلف في أوله : " وقعت مسألة تحبّيس من عبد الواحد الدبّابي من أهل مسجد المشرف بتونس أملاً على أولاده تحبّيساً معقّباً، وله فرعان أحدهما الزاوية العروسية والثاني جامع الخطبة بخارج باب الجزيرة من تونس . وفي التحبّيس خللٌ. سعى لهم نائب الحكم حتى عمل لهم فيه حكماً من القاضي عبد الرحمن ظاناً أن ذلك يفوّت فسّخه. ثم سعى لهم في أن يفتي لهم فيه الفقيه علي عبيد الحرار بصحته. ثم سعى على يد حسين باشا في إفتاء غيره فيه بالصحة . وكلّ ذلك لنيل علة عرض الدنيا المضمحلّ وأغراضها. وقد أصلّت ما وقع فيها استحقاقاً وتحبّيساً وما بعده لقصّد إظهار الحقّ والإعلام به وما آل به الحال من أبناء الزمان".

ويبدو أنه وقع خلاف بين أبي القاسم عظم وبين فقهاء عصره حول هذه القضية مما

جعله يوجّه نقدًا لاذعًا لفقهاء عصره. فهو في آخر الكتاب يصفهم بأقذع أوصاف الجهل ويستشهد على ذلك بمثل هذين البيتين:

قال حمار الحكيم يومًا      لو أنصفوني ما كنتُ أركبُ  
لأنّ جهلي جهلٌ بسيطٌ      وصاحبي جهله مركّبٌ

ولعل الفقهاء أجابوا اتهامه لهم بأنواع من السباب فأجابهم بأجوبة منها:

إذا سبّني نذلٌ تزايدتُ رفعةً      وما العار إلاّ أن تراني أسابيه  
فلو لم تكن نفسي عليّ عزيزةً      لمكّنّتها من كل كلبٍ تُسابيه

ثم هو يتحدّث عن سعة اطلاعه على الوثائق وشهرته في الآفاق إذ تصلّه الاستفتاءات من غالب بلاد إفريقيا فيقول : يأتون بنسخها لاستفتائي في ما يعرض لأهلها فيها من الخصومات كوطن طرابلس وجربة وقرقنة والمحرس وجبال مطماطة وقفصة وتوزر وعمالتها وسوسة والمنستير و صفاقس وعمالتها والقيروان ثم الجزائر وقسنطينة وبسكرة وبونة وغيرها...

وقد ذكر المؤلف فيه معلومات تاريخية منها أخبار متعلقة بسنة 1006 هـ / 1597م

وسنة 1008 هـ / 1599 م، بالإضافة إلى أخبار مفيدة - رغم قلة عددها - عن مدينة تونس وضواحيها.

من كتاب الأدلة المحكمة المجازة نسخة بدار الكتب الوطنية بتونس ضمن المجموع

رقم 13142، هي نسخة المؤلف ضاع أولها فأكملت بخط ناسخ أحدث منه. أما الباقي - وهو

الأغلب - فقد بقي بخط المؤلف. والخط مطابق لما وجدناه في مخطوطات أخرى من نسخه.



وفي نهاية الكتاب أورد المؤلف اسمه بأكْمَل نسب عرفناه له.

وفي المكتبة الوطنية بتونس أيضا من كتاب الأدلة المحكمة المجازة نُسخ أخرى منها الأرقام 4790 و 4818 و 9602 وغيرها، ونسخة بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر ضمن مجموع برقم 594.

وقد اختصره محمد القروي الشريف الحسني في كتاب سماه: اختصار ما به الحاجة، من الأدلة المجازة. منه نسخة المكتبة الوطنية بتونس رقم 23248.

### ( 3 ) برنامج الشوارد = البرنامج لاستخراج مسائل الشامل :

ذكر المؤلف في مقدمته أنه وضعه لاستخراج مسائل كتاب الشامل لبهرام بن عبد الله الدميري القاهري ( ت 805 هـ / 1402 م ). وبرنامج الشوارد كتاب هام في فروع المالكية كان معتمداً عند الفقهاء والمفتين التونسيين حتى أن بعض المصادر تسميه برنامج الشامل. ويعتمده المؤلف أبو القاسم عظوم فيذكره ويحيل عليه كثيرا خلال النوازل التي عرضها في كتاب الأجوبة مما لا يدخل تحت حصر.

يقول المؤلف في مقدمته ( ورقة 1 ب ) : وضعتُ هذا البرنامج لاستخراج مسائل هذا الكتاب الجليل ... وحققتُ عزو ما تكرر فيه ونبّهتُ على مهمّات غامضات العزو وكلّ ما وقع من تسهيل وعمل أو فتوى بخلاف ما انفصل هو عليه أو في قطرنا الإفريقي القيرواني أو التونسي. مقتصرًا في استخراج أصول المسائل ومهمّاتها وغريبها أو ما كثر وقوعه منها دون استيعاب تتبّع الجزئيات. وأعظم ذلك فائدة التنبيه على مواقع المسائل في غير مواضعها

ليستريح المحتاج مثلي وقت الاحتياج ويهتدي إلى مطلوبه الوقتي عند قصد الإفتاء مع تحقيق وتحصيل لذلك.

من كتاب برنامج الشوارد ستّ نسخ بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر وغيرها بدار

الكتب الوطنية بتونس منها النسخة رقم 12210.

#### 4 ( برنامج وثائق الفشتالي :

كتاب وثائق الفشتالي من أهم كُتب علم الوثائق في البلاد المغربية والأندلسية،

اعتمده أبو القاسم عظوم في مختلف كُتبه وخاصة كتاب الأجوبة. والفشتالي هو محمد بن

أحمد الفاسي من كبار شيوخ الغرب في علم الوثائق ( ت 779 هـ / 1378م).

برنامج وثائق الفشتالي كتاب صغير ولكنه أداة نافعة لمستعملي هذا الكتاب الهام في

فنه. يقول المؤلف في أوله إنه وضعه برنامجا لتراجم الكتاب ومهمّات بعض مسائله مرسوما

عليها مواضعها ليسهل استخراج ذلك على مطالعه.

منه نسخة بدار الكتب الوطنية برقم 1898 وأخرى بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر

برقم 1224.

#### 5 ( تخميس بعض أبيات من الشقراطسية:

منه نسخة فريدة بخط المؤلف بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر ضمن مجموع برقم

310 في الورقتين 4 و 5. يقول المؤلف في أولها: إنه قد ضاع من نسخة تخميس الشيخ ابن

حبّيش لقصيدة الشيخ الشقراطسي التي بيدنا أبياتٌ فأردتُ أن أُلحقها هنا ... فإنَّ وُجدتْ - وهي  
عزيزة - أُلحقتُ بأصلها وإلاّ فهذه ربما تنوب عنها .... فأكملها أبو القاسم عظوم بتخميسٍ  
وضعه لثمانية عشر بيتًا من قصيدة الشقراطسي التي أولها قوله:

الحمد لله منا باعث الرسل . أما الشقراطسي فهو أبو عبد الله محمد بن يحيى ، من  
علماء وشعراء مدينة توزر توفي سنة 466هـ / 1073م<sup>58</sup> . تقع قصيدته في 117 بيتًا نُقلت في

كتاب عنوان الأريب لمحمد النيفر<sup>59</sup> .

## 6 ( تراجم المختصر الخليلي = ويسمى برنامج مختصر خليل:

لفظ التّراجم هنا لم يُستعمل للدلالة على أخبار حياة العلماء والمتقّفين وغيرهم من  
مختلف الاختصاصات والدرجات والأنواع، كتراجم الأدباء أو المحدثين أو من هم سواهم.  
وإنما لفظ تراجم هنا يدلّ على التعريف أو الفهرسة لما يحتوي عليه الكتاب من مسائل علمية  
وبيان أبوابه ورموزه التي يحتوي عليها.

اهتمّ أبو القاسم عظوم بمختصر الشيخ خليل بن إسحاق الجندي (ت 749 هـ / 1348م  
) وهو كتاب من أهم وأشهر كتب الفقه المالكي في ذلك العصر وبعده. وقد تناوله الفقهاء  
بالشرح والحواشي ودارت حوله دروسهم ومناقشاتهم على مرّ السنين حتى أصبحت دراسته  
ضرورية لكل من اختصّ في فقه الإمام مالك.

وبما أن كتاب الشيخ خليل مختصرٌ فقد اضطرّ المؤلف إلى وضع رموز تقوم  
مصطلحًا بينه وبين قرّائه لنلا تكثّر فيه الألفاظ المكررة وتصبح الرموز معروفة للدارس

تتصرف إلى ذهنه مباشرة . أمّا عمل أبي القاسم عظوم في كتاب تراجم مختصر خليل فهو يتمثل في تقريب مسأله للباحثين مع قيامه بتبويب المحتوى وتقريب بعض غوامضه بالشرح والترجيح والإشارة إلى أصول المسائل وفروعها مع إبداء آرائه في ما يخالف نظره . معتمداً في ذلك على كتب أساسية في عصره هي مختصر ابن عرفة وفتاوى البرزلي والشرح الكبير لابن ناجي.

ذكر الكفائي كتاب تراجم مختصر خليل<sup>60</sup> في تكميل الصلحاء ص 25 وأشار إلى

أهميته وندرة وجوده فقال : مَنْ ظفر به كان بتحمّله حفيلاً . كتب عنه الشيخ محمد الشاذلي النيفر دراسة مستفيضة في مجلة النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس<sup>61</sup> بعنوان تراجم خليل لعظوم والطرق التقريبية للفقهاء . ومن الكتاب نسخٌ متعددة إحداها محفوظة في المكتبة الوطنية بتونس ضمن المجموع رقم 15096 .

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب : هذه ورقات تشتمل على تراجم مختصر الشيخ الأجلّ ... خليل بن إسحاق .... وعيّنْتُ محلّ كل ترجمة برسم ورقتها ليسهل استخراج ذلك، وزدْتُ مع ذلك فوائد لغريب المسائل وغريب محلّها وغير ذلك مما أبرزه النظر الصحيح ويدركه الفكر السديد تقريباً للمطالع... فيقسّم ويذكر الأجزاء والكتب والأبواب والفصول مثل الجزء الخاص بالعبادات وكتاب أو باب الصلاة وفصل الأوقات أو فصل الطهارة وغير ذلك...

يعتبر كتاب مختصر خليل من أهم مختصرات الفقه المالكي وأكثرها اعتماداً في الحفظ والتدريس والشرح والتعليق . بحيث بقي عمدة في مجاله قرناً طويلاً ووضعت عليه

شروح عديدة وحواشٍ متنوّعة عليها مدار الدراسات الفقهية المالكية. ولهذا السبب وضع له أبو القاسم عظوم هذا البرنامج أو الفهرسة ليسهّل على طالب العلم البلوغ إلى مسائله الدقيقة.

## 7 ( رسالة في المعرفة والتعريف :

ذكرها الكناني في التكميل ص 25 ولم نعرف منها نسخة ولا من ذكرها غيره.

## 8 ( رسالة في نعوت المشهود عليه التي يعتبرها الشاهد في

### شهادته :

كانت هذه الرسالة موضوع دراسة وتحقيق في رسالة دكتوراه من الحلقة الثالثة في الفقه قدمها الطاهر الرزقي لكلية الشريعة وأصول الدين بتونس سنة 1981 م. وفيها مقدمة علمية وافية وترجمة ثرية هامة ومفيدة لأبي القاسم عظوم .

من الرسالة نسخ كثيرة منها نسخة بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر برقم 404.

وأخرى في دار الكتب الوطنية بتونس من بينها واحدة ضمن المجموع 8639 وأخرى ضمن

المجموع 13142 . يقول المؤلف في الورقة الأولى ب من مقدمتها: وبعد فنعوت المشهود

عليه التي يعتمدها الشاهد في شهادته منحصرة في مسائل عرضي في هذه العجالة. طبع

الكتاب بتحقيق محمد الطاهر الرزقي . نشر مكتبة الرشد وشركة الرياض للنشر والتوزيع سنة

1998 م.

## 9 ( رسالة في الجزية وأحكام أهل الذمة :

هي رسالة صغيرة يمكن أن يكون المؤلف قد وضعها بمناسبة استيلاء النصارى على تونس وما حولها في عهده. تقع في ثلاث ورقات فقط. ولعل النظر في محتواها يدلنا على قصده من وضعها:

في مقدمتها يقول: وبعد، فقد وجب الإعلام، بما أغفله العوام، لأنه كما يجب على الجاهل العلم، كذلك يجب على العالم التعليم، قال تعالى ((إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّنناه للناس من الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون))<sup>62</sup>.

وبعد أن تحدّث عن وجوب إبلاغ العلم وكأنه يحمّل العلماء مسؤوليتهم الدينية في عدم إبلاغ العلم قال: ولنرجع إلى المقصود من هذا الموضوع وهي مسألة الجزية وأحكام أهل الذمة لما مسّت إليه الحاجة، فأقول: اعلم أن الجزية تُضرب على الكافر.... ويمضي المؤلف في عرض أقوال الفقهاء في أحكام الجزية وأحكام تصرفات غير المسلمين في دار الإسلام. في حين أن واقع مجتمع المؤلف كان يمثّل هزيمة كاملة أمام النصارى واحتلالاً منهم وقتلاً وسبياً بين المسلمين. فأين واقع حياة الهزيمة من أقوال الفقهاء التي صدرت في عهد النصر والحرية؟

ثم ينتقل إلى ذكر أحكام موالاتة المسلمين لأعدائهم فيقول: إن موالاتهم ومخالطتهم من غير ضرورة ممنوعة، وهي كبيرة من الكبائر تؤذن بقلّة اكتراث مرتكبها بالدين ورقّة الديانة. ومهما قوي ذلك وتمكّن من فاعله كان مؤذناً بسلب الإيمان عنه، نعوذ بالله من ذلك ومن فاعله. قال الله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم

أولياء بعض...))<sup>63</sup> وبعد أن عرض مجموعة من الآيات بيّن معانيها وغاياتها قال مثلاً: دلت الآية على أن متولّي ( غير المسلمين ) لا يُهدَى، ومَن لا يُهدَى فهو مُضَلّ والمُضَلّ خاسر كافر . ويقول في توضيح آية أخرى : فمن ودّهم فقد سلب عنه وصف كتابة الإيمان في قلبه ونُفي عنه الإيمان بالتصريح الذي في الآية...

جمع المؤلف في هذه الرسالة القصيرة جملة من الآيات المتتالية لتنظيم العلاقة السياسية والحربية بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى في الظروف السياسية والعسكرية الحرجة عند قيام الخلاف والحرب والصراع السياسي والديني. أما في ما دون ذلك من أوقات السلم وظروف التعامل الحضاري الإنساني المتبادل فإن الصلات التي تقوم بين الإسلام ومختلف الأديان الأخرى لا تدخل تحت هذا التقنين. بدليل ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من تعامل معهم في غير ظروف الحرب والنزاع.

فلا يمكن أن نفهم مقصد المؤلف بهذا التركيز على تكفير الموالين للأعداء في الدين وقت الحرب إلا إذا عرفنا تاريخ الملوك الحفصيين الأواخر ممن عاشوا عصره. فإنهم قد دعوا بإلحاح القوات الصليبية للاستيلاء على تونس وما حولها من المراكز العسكرية والمدنية، بل وقدموا أموال الأمة للمعتدين مقابل اعتدائهم على المسلمين وتمكينهم من استحلال المدينة وأهلها على حين غرّة، فقتلوا عشرات الآلاف وأسروا عشرات الآلاف ونهبوا ما في بيوتهم.

ففي الرسالة - على صغرها - معانٍ سياسية دالة على موقف أبي القاسم عظم من الخيانات الصادرة عن ملوك الدولة الحفصية الأواخر وحكم الشرع فيهم.

لم نعرف من هذه الرسالة غير نسخة واحدة بخط المؤلف محفوظة بمكتبة الشيخ محمد

الشاذلي النيفر ضمن مجموع برقم 310 في ثلاث ورقات من أوله.

## 10 ( مناهل الورود في القضاء بموجب الحدود :

منه نسخة بدار الكتب الوطنية بتونس ضمن المجموع 8004 من الورقة 149 إلى

82ب ، ونسخة أخرى ضمن المجموع 13142 (2) عليها خط الشيخ محمد العربي الماجري.

والمخطوط منقول عن نسخة بخط المؤلف، من ورقة 16 أ إلى 39أ .

يقول المؤلف في مقدمتها : وبعد ، فهذه عجالة مختصر مختصرة تتعلّق بالدعوى

والجواب الإنكاري الذي يعقبه إنكار المنكر ودعواه المخرج في ما أنكره، دعت إلى وضعها

الضرورة بسبب نازلة . وسمّيتها رفع الغيب بالإسفار ، في عدم قبول المخرج بعد الإنكار،

وربما لقبّتها بكتاب مناهل الورود ، وبحث القضاء بموجب الجود.

## كتاب الأجوبة لأبي القاسم عظوم:

هو أهمّ كتب أبي القاسم عظوم وأكبرها وأشهرها لذلك نخصّه بتعريف أوسع مما

عرّفنا به كتبه الأخرى.

يندرج كتاب أجوبة عظوم ضمن القائمة الطويلة لكتب فتاوى التونسيين التي

بدأ ظهورها من القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي انطلاقاً من أسئلة سحنون

مروراً بأسئلة ابن أبي زيد القيرواني وأسئلة القابسي ثم اللخمي وفتاوى المازري



ومسائل ابن قداح ومسائل ابن عرفة وفتاوى البرزلي ثم أجوبة عظوم إلى فتاوى المتأخرين من رجال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي. وإذا كانت كتب فقه النوازل قد تعددت عناوينها<sup>64</sup> واختلفت أزماتها وتنوّعت مناهج كتابتها فإنها جميعاً تقصد غايات واحدة هي تقديم حلول للمشاكل الاجتماعية والشخصية والدينية، يلتجئ فيها السائلون إلى كبار الفقهاء - ممن تتوفر فيهم شروط الافتاء - ليجدوا عندهم تفسيراً لغوامض أحداثهم ويظفروا بالتوجيه في ما نزل بهم من نوازل نتيجة لتطور الأزمان والأحداث.

كتاب الأجوبة لعظوم هو كتاب فتاوى جمع فيه المؤلف كلّ ما ورد عليه من استفتاءات وأسئلة وكل أجوبته عليها، وفضّل أن يعنونها بالأجوبة، والمقصود من اللفظين - الأجوبة والفتاوى - واحد.

توضع كتب الفتاوى الفقهية عادة على أساس جمع الأسئلة التي ترد على المفتي وأجوبته عليها. إلا أن أغلب المفتين يرتّبون فتاواهم على ترتيب أبواب الفقه، فيجمعون المسائل والأجوبة المتعلقة بكل باب على حدة، واضعين لها عنواناً فقهياً واضحاً، مثل ما درج عليه ابن سهل الأندلسي في فتاواه وفتاوى البرزلي التونسي وفتاوى الونشريسي المغربي. ومن المفتين من لم يرتّب فتاواه على ذلك النمط وإنما يعرضها دون ترتيب حسب موضوعاتها. فيكون عرضه لها كما تأتي له وضع أوراق فتاواه. وذلك مثل فتاوى ابن رشد أو الفتاوى التي جمعت لعياض والمازري. أما المفتي أبو القاسم عظوم فقد سلك مسلكاً غير هذا وغير ذلك، مما سنوضحه عند الحديث عن منهج الكتاب.

لقد حاولتُ أن أتعرف على نُسخ من كتاب الأجوبة العظومية خارج المكتبات التونسية فلم أعثر على مخطوطة واحدة منه خارج الوطن في ما تيسر لي الاطلاع عليه من فهرس المخطوطات في مراكز البحوث أو المكتبات التي زرتها أو اطلعتُ على فهرس مخطوطاتها خلال السنوات الأخيرة.

أما نُسخ أجزاء الكتاب الموجودة في البلاد التونسية فقد عرفنا منها ثمانية وثلاثين جزءا في دار الكتب الوطنية بتونس بالإضافة إلى نسخة جزء بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر اطلعت عليها وثلاث نسخ أجزاء بمكتبة الشيخ محمد الصالح النيفر اطلعت عليها أيضاً ونسخة نادرة على ملكي الخاص. وسوف أحاول مواصلة البحث لعلّي أجد غير ما ذكرته سابقا.

وبما أنني اهتممتُ بكتاب الأجوبة وقضيتُ السنوات العديدة في تحقيقه وددتُ أن أفسح المجال للحديث عنه وعن أجزاءه ومخطوطاته ومنهج مؤلفه فيه على قدر الحاجة مما تتطلبه مني غايتي في إبراز قيمة الكتاب الذي يعتبر أهم مؤلفات أبي القاسم عظم وأكثرها فائدة وأحراها بالتعريف والعناية.

### أجزاء الكتاب ومخطوطاته :

عندما شرعتُ في الاهتمام بالكتاب وأردتُ التهيؤ لتحقيقه قرأتُ أغلب - إن لم أقلُ كلَّ - ما كُتِبَ عن الرجل والكتاب، فوجدتُ عند مَنْ سبقني من المعاصرين فوائد ودراسات منها التي تبلغ درجة الإحسان كدراسة الشيخ محمد الشاذلي النيفر ودراسة أحمد قاسم ودراسة محمد الطاهر الرزقي، تتضاف إليها دراسات عرضية لم تكن عناية أصحابها بالكتاب عامة ولكن بمسألة أو مسألتين منه<sup>65</sup> تتناول قضية خاصة جلبتُ اهتمام

صاحبها من بين مسائل الأجوبة التي تقارب الألف نازلة . أما المصادر القديمة فإنها لم تذكر غير لمحات عامة عن المؤلف ولم نجد له فيها غير ترجمات فقيرة وذكراً شحيحاً في المعلومات التي ربما تفيد في معرفة الكتاب. وإذا كانت المصادر القديمة وبعض الدراسات قد ذكرت الكتاب وعنوانه وأشادت بأهميته فإنها لم تزد على ذلك .

بحيث لم نجد في المصادر والدراسات تحديداً شافياً يدلّ على عدد أجزاء الكتاب. فإذا كان محمد مخلوف في شجرة النور الزكية يذكر أن أجزاءه تبلغ الثلاثين فإن الكنانى في تكميل الصلحاء يجعلها اثني عشر جزءاً ويسكت الباقون عن عدد الأجزاء. وما ذلك إلا لأسباب عدة أهمها:

- عدم توفر نسخة واحدة كاملة للكتاب في أي مكتبة من المكتبات العامة أو

الخاصة.

- يبدو أن أبا القاسم عظوم توفي قبل أن يُتمّ ترتيب كتابه. ولعلّه بدأ بتحديد

الأجزاء بمحتوياتها. لأننا وجدنا نسخة من الجزء الخامس وأخرى من الجزء السادس وكتاهما بخطه الذي ثبتت نسبته إليه بما في نصه، مع مقارنة الخط بما وجدناه من نصوص كتبها المؤلف في مخطوطاتٍ أخرى.

- تشبّث مخطوطات الأجزاء من الكتاب مع اختلاف خطوطها وأزمانها.

- وقوع اضطراب كبير في تحديد أرقام الأجزاء، وتداخل في بدايات نصوصها

ونهاياتها وأواسطها مما جعل الاختلاف فيها كثيراً.

- يجد الباحث من بعض أجزاء الأجوبة العديد من النسخ، ويجد من أجزائها

الأخرى النسختين والثلاثة، وربما لا يجد إلا نسخة واحدة لجزء واحد.

كل هذه الأسباب أوجدت الصعوبة في تعيين الأجزاء وتحديد عددها. وأمام هذا الوضع فضلتُ أن أطلع على المخطوطات المعروفة منه وأن أقوم بالمقابلة والمقارنة بينها حتى أصل إلى تعيين عدد الأجزاء وتعيين نسخها ومحتواها<sup>66</sup>. فاقتنعتُ في نهاية المطاف بأن الكتاب يشتمل على عشرة أجزاء ثبتت أرقام أجزائها على المخطوطات إلا الجزأين الثامن والتاسع، فإني لم أجد لعددهما ذكرًا على المخطوطتين الوحيدتين لهما. فاجتهدت رأيي لتعيين هذين الجزأين اعتمادًا على تقريب تاريخي. كما رجّحتُ عدد الجزء من تلك الأجزاء التي يقع فيها الاختلاف في الترقيم. ولم أصل إلى هذا الاقتناع إلا بعد ستة أشهر من اللأي المتواصل، وأصبحتُ أجزم بأن كتاب الأجوبة لأبي القاسم عظم يتكون من عشرة أجزاء. ثم شرعتُ في تحقيق الكتاب لتطبعه بيت الحكمة بتونس. وقد أنجزنا - والله الحمد - كامل أجزائه مع جزء لفهارسه وتولت مؤسسة بيت الحكمة إتمام طبعه في سنتنا هذه 2009.

### منهج عظم في الأجوبة:

التزم أبو القاسم عظم أن لا يورد من الأجوبة إلا التي صدرت عنه ليجيب بها عن أسئلة وردت إليه، ولن تجد من فتاوى غيره التي نقلها هو في كتابه إلا النادر القليل جدا التي يكون أورها للاستشهاد. ومن خصائص أجوبة عظم هذه أن مؤلفها يذكر في أولها غالبًا اسم السائل وبلده ومهنته وربما محلّ إقامته وأصوله، وربما ذكر أخلاقه أو ملبسه وشكله وعلاقته بغيره من صحبة أو نسب، مع اهتمامه بذكر الوظائف الشرعية أو الإدارية أو العسكرية. ولا يُهمل ذكر المدن والمناطق والأحياء والشوارع والأسواق. كما

يذكر أنواع الملابس للرجال أو للنساء، وما يتعلّق بالزيجات أو المناسبات الاجتماعية وغير ذلك مما يقدم المادة الخام لدراسات تاريخية حضارية، فهي شهادات معاصرة مباشرة لا يتطرق إليها الشك ولا نجد لها مثيلاً في أي مصدر آخر من كتب المؤرخين أو الأدباء مما يتعلّق بالتاريخ التونسي لتلك الفترة.

وإذا كان الشيخ أبو القاسم عظوم لم يرتّب مسائله وأجوبته على ترتيب الموضوعات الفقهية ولم يعرضها كما تأتت له جذاذاته ومحفوظاته، فإنه قد جمع مسائله المتقاربة في تواريخ تلقّي الأسئلة وإصدار الأجوبة عنها، بحيث وجدنا كل جزء من أجزاء كتابه أجوبة تتقارب تواريخها في ذلك الجزء تقارباً نسبياً. إلا أنه لم يكن دقيقاً سواء في ترتيب السنوات أو الأشهر أو الأيام. فإن أسئلة الجزء الأول مثلاً تعود إلى الفترة بين سنة 982 هـ وسنة 986 هـ ، والجزء الخامس بين سنة 996 هـ وسنة 1000 هـ ، والجزء العاشر بين سنتي 1006 هـ و 1009 هـ . وقد يحدث أن يعرض فتاوى شهر واحد متتالية متتابعة ومرتببة مثل عرضه لسنة أسئلة وأجوبتها مؤرخة بشهر واحد هو ربيع الآخر من سنة 1006 هـ / 1597م<sup>67</sup>. إلا أنّ هذا الترتيب وذاك التقريب لم يكن ملتزماً التزاماً دقيقاً ولا دائماً.

التزم الشيخ عظوم منهاجاً واحداً أو كاد أن يكون واحداً في عرض فتاويه من أسئلة وأجوبة، بحيث يكوّن كل سؤال وجوابه وحدة تتألّف من عناصر تتكرر في كل وحدة من أجوبته، ولا ينقص عنصر من عناصر الوحدة إلا نادراً.

إنّ كل جواب من "الأجوبة" عنده لا بد أن يتكوّن من : أ ( السؤال. ب ) ( الجواب. ج ) التذييل. وقد تنضاف إلى ذلك أحياناً نصوص وثائق يقدّمها السائل أو

الخصم، كما يمكن أن يعرض المؤلف تنبيهًا أو عنوان فرع أو فائدة. إنّ العناصر الثلاثة الأولى ( السؤال والجواب والتذييل ) يجب أن تتوقّف في كل جواب، ويندر أن يغيب التذييل إلا إذا ضاع من الأصل.

ولزيادة توضيح منهجه نعرض بعض الطرق التي يلتزمها في فتاواه:

الأسئلة: يعرض السؤال غالبا بأحد لفظين "سألني" أو "سُئلتُ" ثم يذكر اسم السائل مع بلده أو حيّه ومعلومات عنه، مع التاريخ الذي يذكر فيه السنة والشهر، أما اليوم فالغالب أن لا يحدده ويكتفي بقوله إنه في أوائل الشهر أو أواسطه أو أواخره. وقد يرد السؤال مسبقًا بنسخة رسم يُعتمد في القضية. وينتهي السؤال غالبا بجملّة استفهامية تحدّد ما يطلبه السائل داعيًا للمفتي بجزيل الثواب والأجر.

الأجوبة: يبدأ الشيخ عظم الجواب مباشرة بعد عرض السؤال قائلاً: " فأجبتُ بما نصه بعد الافتتاح: وإذا كان الأمر كما ذكر ...." وهو بذلك يربط جوابه بنص السؤال ويخصه به. ثم يعرض جوابه الذي يحاول فيه أن يتتبع عناصر القضية عنصرًا عنصرًا إلى أن يأتي عليها جميعًا .

التذييلات: وبعد أن يُتمّ الجواب يضع عنوانًا جانبيًا نصه " تذييل ". يشتمل على رجوع المفتي إلى عناصر جوابه يبيّنها ويوضّحها بالتفسير والتوضيح فيتناولها بالشرح اللفظي وشرح المعاني والشرح الفقهي الذي يتوسّع فيه ويكثر فيه النقول عن المصادر الفقهية والكتب الأمهات.

إن العارف بشخصية أبي القاسم عظم وكتابه الأجوبة يلاحظ بأن الرجل يُعتبر من أولئك الفقهاء الذين جمعوا بين المنقول والمعقول. وعند مطالعتنا لكتابه تستبين لنا سعة

معرفته بالمصادر والكتب والآراء والأصول والفروع، وتستبين لنا وجوه تعامله مع النصوص التي يبني عليها فتاويه. فإن منها ما يعتمد مسلاً ويقبله دون نقاش، ومنها ما يناقشه ويحاججه فيقبل بعضه ويترك بعضه، ومنها ما يرفضه بعد معارضة وإقامة الدليل في ذلك.

إن مصادر أبي القاسم عظم في كتاب الأجوبة تتكون من الروايات والأقوال المنقولة المتوافرة عن شيوخ المذهب كالإمام مالك وابن القاسم وسحنون وغيرهم أو من المؤلفات المكتوبة. ومن أكثر هذه المؤلفات ذكراً ووروداً الكتب التالية: مختصر ابن عرفة والنوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني مع رسالته وكتاب الشامل لبهرام ومختصر خليل وشرح ابن ناجي الكبير على المدونة وشرح المدونة الكبير للمغربي والطرر لابن عات ومقدمات ابن رشد وفتاوى البرزلي واختصارها لأحمد حلولو وتآليف جد المؤلف محمد بن أحمد عظم، وغير ذلك من كتب المالكية مما لا يدخل تحت حصر.

### **الموضوعات التي تناولها المؤلف في فتاواه:**

تكاد تنعدم تماماً المسائل المتعلقة بالعبادات من فتاواه، فلا نجد أسئلة وردته عن أمر يتعلّق بالصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج. كما لم نجد أسئلة وردت عليه مما يتعلّق بالعقائد. وإنما كان الغالب على المسائل وأجوبتها ما كان له علاقة بالموضوعات التالية:

**الأحوال الشخصية:** من زواج وطلاق وأحكام المعاشرة بين الزوجين ودار

الجديدين والنفقة والولاية في التزويج والحضانة والرضاع.

**المواريث والأوقاف العامة والخاصة والوصايا .**

**المعاملات التجارية** من بيع وشراء وغبن وأجال ونظر في صحة العقود والرسوم

بأنواعها المختلفة، والأكرية والهبات والصدقات.

**المعاملات المالية** من شركات وقروض ورهان، والالتزامات المالية بأنواعها.

**تحديد صحة الملك من عدمه** وأحكام الحيازات وترشيد القاصرين والشفعات.

**الصناعات والزراعة والمساقاة.**

**الجراحات والقتل والسرقات والخلافات بين القبائل والأشخاص.**

**الأيمان.**

**أحكام العبيد وحقوقهم** والمعاملات معهم في أحوال إباقتهم والولاء.

**مسائل متعلقة** بقضايا حدثت في مرحلة استيلاء النصارى على تونس وبعض

المدن الساحلية، أحكام أسرى المسلمين في جنوب أوربا وصور من إطلاق سراحهم.

**أسئلة عن أحكام بعض التصرفات الإدارية والقضائية والموظفين.**

**فتاوى في قضايا متعلقة باليهود** سواء تلك التي حدثت بينهم وطلبوا البت فيها من

قاضي المسلمين أو مسائل حدثت بين يهود ومسلمين.

### **محتوى كتاب الأجوبة**

يشتمل كتاب الأجوبة لأبي القاسم عظم على عشرة أجزاء متوسطة الحجم في

الجملة مع جزء للفهارس. وسوف تكون عدد صفحات طبعته 3790 صفحة من القطع

المتوسط. أما عدد الفتاوى التي اشتمل عليها فقد أحصيناها فوجدناها 957 تُضاف إليها

مائة مسألة فقهية منقولة عن أمهات كتب الفقه.

**كلمة خاتمة:**



في نهاية هذا الحديث الموجز عن عصر أبي القاسم عظوم وترجمته وكتابه " الأجابة " لا أجد مناصاً من القول بأن الرجل قد ترك لنا في فتاواه مادة أساسية لمعرفة ودراسة تاريخ تونس الحضاري خلال القرن 10 هـ / 16 م. وهي مرحلة جفّت فيها منابع ومصادر تاريخنا الحضاري الاجتماعي والاقتصادي. قدّم لنا الشيخ عظوم شهادات معاصر مُعَينٍ اشتملت على وصف الكثير من الظواهر والوقائع والأسماء والحوادث. إنها شهادة فقيهٍ مفتٍ يذكر فيها ما شاهده وينقل ما بلغه وقد كان يشغل وظيفة الإفتاء في فترة ما كان المفتي ينال رزقه من سلطة بل كان عظوم يأخذ من المستفتين ما يكفيه وأهله ليومه.

وإن الفتاوى - في الغالب - شهادات صادقة ليس للمفتي ما يدفعه للتجميل أو للتقبيح، كما أن عمله لا علاقة له بسلطة ولا بوجهة سياسية يسعى لنصرتها. ولا نجد في كتب الفتاوى ما يجعلنا نشك في روايات صاحبها لأنه لم يكن ملتزماً بموقف المناصر أو المناهض. وإن في ما يعرضه مؤلفها شهادات تاريخية حضارية ثمينة يجب أن تُدرس ويستفيد منها المؤرخون بعد أن استنفذوا الكثير من النصوص التاريخية بتحقيقها وتمحيصها. وقد أشار إلى القضية المستشرق Claude Cahen في كتابه : مدخل لتاريخ العالم الإسلامي الوسيط = Introduction à l'histoire du Monde Muslman médiéval فقال متحدثاً عن كتب النوازل: إنها تستحق أن يعطيها المؤرخ عناية خاصة... وأن هذه الفتاوى تتعلّق عادة بمجالات واقعية... وإن لها لفائدة كبيرة<sup>68</sup>. كما نبّه عبد الله العروي على أهميتها في البحث التاريخي بقوله: إن فقه النوازل هو الكفيل بأن يقرّبنا أكثر من الأوضاع السياسية والاجتماعية، لكن هذا النوع من الكتابة مازال لم يُدرس

وبعد أن أتممتُ تحقيق أجوبة عَظوم وقرأتُ بقية ما احتوى عليه الكتاب أصبحتُ أعتقد أن هذه الفتاوى ستكون مُنجمًا ثريًا تُستخرج منه المعلومات وسوف تكون مقصدًا للعديد من المؤرخين والدارسين في المستقبل، وخاصة من أولئك الشباب الذين سيكشفون ما كان غامضًا في التاريخ التونسي المتعلق بالقرن السادس عشر. ولو لم أكن على يقين من هذا ما كنتُ بذلتُ السنوات العديدة من عمري في تحقيقه لأضعه بين أيدي الباحثين من ثمار المستقبل.

**الهوامش:**

- 1 - خوجة ( حسين ) : ذيل بشائر أهل الإيمان ص 167.
- 2 - ننسب في هذا الكتاب الجيش المهاجم للشمال الإفريقي في القرن 16 م بنسبة النصرانية لأنه في الحقيقة تحرّك بقرار نصراني صادر عن السلطة الدينية العليا، ثم إن الجيش يتألف خاصة من عدد كبير من الدول والمؤسسات النصرانية. فلا نستطيع أن ننسبه لإسبانيا فقط ولا للكنيسة البابوية فقط ولا للدويلات الإيطالية القائمة في حوض البحر المتوسط فقط.
- 3 - تجمّع لدينا العديد من النصوص الكنسية والمصادر التاريخية الأوربية النصرانية التي تصف تحرّك شارلكان بأنه حرب صليبية. وهي نصوص من أقوال رجال دين أو رجال سلطة وسياسة أو مؤرخين أو الكتاب لمراسلات رسمية وأدبية. وهذا ما سمح لنا باستعمال هذا اللفظ عند حديثنا عن هجمة شارلكان وابنه دون جوان دوتريش على شمال إفريقيا في القرن 16م.
- 4 - وكان من علامات التنصير الشكلي للأماكن أن سمّوا كل واحد من هذه التحصينات العشرة باسم واحد من كبار القديسين النصارى وكلهم من الذكور إلا واحدة، وهم :

Saint – Michel , Saint – Jacques , Saint –Georges , Sainte – Barbe , Saint – Ambroise , Saint – Jean , Saint – Alphonse , Saint – Pierre , Saint – Philippe , Saint – Martin.

Voir Sebag , Paul : Tunis : Histoire d'une ville p 177( D'après l'Atlas de Baun et Hoggenberg).

5 - Poinssot et Lautier : Revue Tunisienne no 3 et 4 pp 221.

6 - من رسالة صادرة عن السلطان العثماني موجهة إلى سلطان تونس الحفصي أحمد بتاريخ أواسط شهر ربيع الأول 967 هـ / 15 ديسمبر 1559 م . طبعت مع رسائل أخرى مشابهة في المجلة التاريخية المغربية ( العدد 10 و 11 سنة 1978 ص 29 ) بترجمة الأخ عبد الجليل التميمي في ملحق ببحثه الذي عنوانه الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني في القرن السادس عشر .

7 - نفس المرجع ص 24 .

8 - ابن أبي دينار : المؤنس 164 .

9 - نفس المصدر 175 - 176 .

10 - من بين أمراء الحفصيين أمير اسمه حميدة وهو حفيد السلطان الحسن وابن السلطان أحمد اعتنق المسيحية عند سفره إلى إيطاليا مع أبيه وبقي بها. سكن نابلي ثم انتقل إلى بليرمو بصقلية

- ووقع تعميده باسم Hamida Carlos de Austria ومات في Termini وهو لابس رداء Les freres Minorum سنة 1601م، ورخامة قبره في كنيسة Monastère de St Martin تدل على أنه تصدّق بأملكه على الكنيسة. - Revue Tunisienne no 26, 1936 , pp203
- 11 - حسين خوجة: ذيل بشائر أهل الإيمان ص 167.
- 12 - ما كتبه الشيخ محمد الشاذلي النيفر في مجلة جوهر الإسلام بتونس السنة الثانية (1969 - 1970) الأعداد: 2 ، 6 ، 7 ، 8 .
- 13 - ذكر الزركلي في الأعلام 7 : 57 أن منه نسخة بمكتبة جامع الروضة بدمشق.
- 14 - الغزي : الكواكب السائرة 2 : 15 - 19 .
- 15 - ابن القاضي : جذوة الاقتباس
- 16 - وردت بعض الرسائل من السلطان العثماني إلى أهل القبروان تخصهم بالعناية وتدعو العسكر إلى حسن تصرف معهم وحمايتهم وصونهم. بعضها مؤرخ بسنة 979 هـ / 1572م وسنة 981 هـ / 1574 م . ترجمها ونشرها التميمي في المرجع السابق ص35 و 40.
- 17 - عظوم: الأجوبة 8 : 265.
- 18 - نفس المصدر : 2 : 259.
- 19 - الكنانى : تكميل الصلحاء 77.
- 20 - خوجة (الحسين) : ذيل بشائر أهل الإيمان 123.
- 21 - مخلوفة شجرة النور الزكية: 1 : 292.
- 22 - انظر مقدمتنا لتحقيق كتاب الأجوبة لأبي القاسم عظوم ص 8 - 9 ؛ الكنانى : تكميل الصلحاء ص 77 ؛ حسين خوجة : ذيل بشائر أهل الإيمان 123 ؛ مخلوف : شجرة النور الزكية 1 : 293.
- 23 - وردت القضية في كتابه مواهب العرفان، في بيان مقتضى حال حُكّام الزمان. انظر رسالة محمد الرايس ص 84 - 85.
- 24 - وهو الكتاب الذي درّسه وحققه الباحث المذكور في رسالة نوقشت في الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس خلال سنة 1983 م.
- 25 - ذكرها الباحث محمد الطاهر الرزقي في رسالته (ص112) .
- 26 - وقد نقل أبو القاسم عظوم ترجمة هامة ومفيدة وطويلة للرجل في الجزء التاسع من أجوبته ( الورقة 123 ب وما بعدها) نقلها عن كُنْشٍ وجدّه بخط الشيخ عبد الجليل عظوم .

- 27 - منه نُسخ في دار الكتب الوطنية بتونس وأُخِر بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر وطبع طبعة قديمة.
- 28 - منها نسخة في مكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر ضمن المجموع رقم 1140.
- 29 - من أقوال أبي القاسم في أخيه ما ورد في الجزء الأول ص 163 و ص 198 ، وفي الجزء الثالث ص 251 و ص 269.
- 30 - انظر تفاصيل عن هؤلاء الفقهاء العظاممة ومصادر تراجمهم في المقدمة التي وضعتها في بداية الجزء الأول من تحقيقي لكتاب الأجوبة لأبي القاسم عظم الذي طبعته بيت الحكمة بتونس سنة 2004م.
- 31 - Berque : L'interieur du Maghreb p 108 ; ابن خلدون : التاريخ 2 : 255 .
- 32 - وذلك في البحث الذي نشره في مجلة جوهر الإسلام، العدد 6 الصفحة 23.
- 33 - عظم : الأجوبة 7 : 119،129.
- 34 - نفس المصدر 4 : 188.
- 35 - عظم : الأجوبة 7 : 95.
- 36 - محمد الشاذلي النيفر : ترجم خليل لعظم والطرق التقريبية للفقہ ص 105. وقد صرّح أبو القاسم عظم أنه تتلمذ له انظر الأجوبة 6 : 414 ؛ 7 : 14 ؛ 8 : 51 .
- 37 - حسين خوجة : ذيل بشائر أهل الإيمان 183 - 184 .
- 38 - الكناني : تكميل الصلحاء ص 26.
- 39 - أبو القاسم عظم : الأجوبة 1 : 57 .
- 40 - الوزير السراج : الحلل السندسية 2 : 345 - 346 .
- 41 - حسين خوجة : ذيل بشائر أهل الإيمان 184 .
- 42 - أبو القاسم عظم : الأجوبة ( مخطوط مكتبة الشيخ محمد الصالح النيفر ) الورقة 49ب.
- 43 - عظم : الأجوبة 2 : 19،20.
- 44 - أبو القاسم عظم : الأجوبة ( مخطوط المكتبة الوطنية رقم 14801 ) ورقة 4 ب.
- 45 - عظم : الأجوبة 1 : 133.

- 46 - أبو القاسم عظوم : الأجوبة 6 : 48 - 49 .
- 47 - أبو القاسم عظوم : الأجوبة ( مخطوط المكتبة الوطنية رقم 18436 ) ورقة 49 أ.
- 48 - توفيق البشروش : موسوعة مدينة تونس ص 276 .
- 49 - دوزي : ملحق للمعجم العربية 2 : 496 . ذُكرت هذه الصناعة في فتاوى البرزلي 3 : 265.
- 50 - وصَفَ هذا المسجد وحدّده محمد ابن الخوجة في كتابه تاريخ معالم التوحيد ص 155 ؛ الدولاتلي : مدينة تونس في العهد الحفصي ص 261 .
- 51 - حسين خوجة : ذيل بشائر 123 .
- 52 - الكناني : تكميل الصلحاء ص 25.
- 53 - السنوسي: مسامرات الظريف 2: 155.
- 54 - النيفر : عنوان الأريب 1 : 463.
- 55 - النشر العلمية للكلية الزيتونية: العدد الأول من السنة الأولى (1970) ص 107.
- 56 - الكناني : تكميل الصلحاء ص 26.
- 57 - الكناني : تكميل الصلحاء ص 23.
- 58 - كحالة : معجم المؤلفين 11: 70.
- 59 - النيفر (محمد وعلي) عنوان الأريب 1: 146-151.
- 60 - الكناني : تكميل الصلحاء ص 25.
- 61 - محمد الشاذلي النيفر : النشرة العلمية للكلية الزيتونية العدد الأول 1970 ص 97 وما بعدها.
- 62 - القرآن : البقرة 159.
- 63 - القرآن : المائدة 51.
- 64 - تُطَلَّق على كتب الفتاوى تسميات عديدة منها : الفتاوى ، الأجوبة ، الأسئلة ، المسائل ، النوازل ، الأحكام.
- 65 - مثل البحوث التي كتبها برونشفيك وبارك ومحمد الهادي الشريف.
- 66 - انظر تفاصيل الحديث عن هذه المخطوطات في مقدمتنا لكتاب الأجوبة 1: 31-44.
- 67 - عظوم : الأجوبة 3 : 121-143.
- 68 - عظوم : الأجوبة 3 : 121-143.
- 69 - عظوم : الأجوبة 3 : 121-143.

## عيّنات من أجوبة أبي القاسم عظوم

تُقدّم لنا أجوبة الشيخ أبي القاسم عظوم محتويات ناطقة ومعبرة عن الأوضاع الاجتماعية في بلاد إفريقية وتصور لنا جلّ جوانب الحياة فيها بتفاصيل يعزّ وجودها في مصادر تاريخية أو حضارية أخرى. ففي هذه الفتاوى كشفٌ لحقائق العلاقات القائمة بين المتساكنين على اختلاف أجناسهم وأنواعهم ، كما تُشير إلى

الكثير من ملامح الحياة الحضارية مع توضيح علاقتهم بالسلطة والإدارة في العهد العثماني الأول. ويكاد لا يجد المطالع لها جانباً غير وارد من جوانب حياة الإنسان في مدينته أو في باديته ، في تجارته أو صناعته ، في علاقاته الاجتماعية أو العائلية. ولعله يمكن أن نقول : إن الأجوبة في ما عرضته من مسائل قد غطت الكثير من المشاكل التي حدثت في ما بين سنة 982 / 1574 م وسنة 1009 / 1601 م أي خلال 27 سنة من تولي أبي القاسم عظوم الإفتاء في عاصمة الدولة التونسية.

وقد حرصتُ على أن أعرض للقارئ بعض اختيارات من أجوبة عظوم لتقدم له تصوّراً – ولو كان موجزاً – لنوعيات من الفتاوى تكشف عن فوائدها للباحث في التاريخ والحضارة، كما تكشف عن دقة النظر القضائي الذي يتمتع به الرجل في فهم النص الديني وسعة النظر في أحكامه التي جعلته ينزّه نفسه عن أن يكون كالكثير من معاصريه، فهو لا يقبل التعصّب والشدة ويرفض الظلم ويدافع عن حقوق الضعفاء، ثم هو ينقد كلّ ما يجب نقده من أخطاء مجتمعه.

إن رحلتي الطويلة مع الرجل في كتابه " الأجوبة " جعلتني أصفه بالسعة في العلم ، والدقة في الفهم ، والنزاهة في الحكم ، ورفض التعصب والتشدد في دينه، وهي صفات امتاز بها عن الكثير من أبناء عصره.

لقد اخترتُ عيّنات من هذه الفتاوى لتقوم دليلاً على ما وصفته به. فمن العيّنات ما يتعلّق بموقفه ونقده للأوضاع الإدارية في عصره، ومنها ما يتعلّق بحماية المرأة من الظلم والاستهتار ، ومنها ما يعطينا صورة لنتائج الزحفنين الصليبيين اللتين قام



بهما Charles Quint وابنه Don Juin d Autriche، كما اخترنا عيّنين  
تكشفان عن مواقفه ومواقف الفقهاء من حياة أهل الذمة ضمن المجتمع المسلم.

## 1 الفتوى الأولى:

( صُوِّرَ من سوء الأوضاع الإدارية في عصره (1). )  
الأجوبة 6 : 55 - 57.

الحمد لله، استدعانا المعظم محمد باشا في تونس في صبح يوم الأربعاء  
خامس جمادى الأولى عام سبعة وتسعين وتسعمائة [997 هـ / 23 مارس 1589  
م] كاتبه والنائب الفقيه محمد قشور والحاج سالم النفاتي. فحضر الشريف أبو  
العباس أحمد ابن الشريف المرحوم أبي عبد الله محمد ابن القاضي إبراهيم  
الشريف السوسي، والفقيه إبراهيم الكلثومي وجماعة كبيرة غيرهما شرفاء  
وغيرهم من أهل بلدهما سوسة. فاستظهروا بوثيقة كبيرة فيها نحو المائة وربع

المائة لشرفاء وعدول وغيرهم من أهل سوسة، شهدوا في الفقيه عبد الله بشير وأولاده محمد وحسين وحسن بارتكابهم ذمائم ونقائص ومخالفات وكبائر شرعية. منها الجور في الأحكام وأخذهم الرشى عليها وشهادات الزور وارتكاب المعاصي وظلم الرعية، وغير ذلك مما لا يُحصى كثرة. فأمر الباشا المذكور الفقيه محمد قشور بالنظر في القضية وأن يفعل فيها ما يرى. فأمر الفقيه محمد قشور المذكور الفقيه عبد العزيز ابن الفقيه محمد بن فتح الله بأن يكتب سؤالاً بمحولها، فكتب، فصرّفه الباشا والجماعة إليّ للجواب.

ونص السؤال بعد افتتاحه: جوابكم المبارك عما تضمنه الرسم المسطر بمحوّله وما اشتمل عليه من المناكر الشرعية والعرفية التي اشتملت عليها الوثيقة المذكورة في المذكورين، في أقوالهم وأفعالهم وجملته أحوالهم وما يلزمهم بمقتضى الشرع العزيز، وكذلك بحسب السياسة الشرعية؟ وهل بعد ثبوت هذه الوثيقة يصحّ منهم حكم أو غيره من الوظائف الشرعية؟ جوابكم عن ذلك مبيناً، تؤجرون، والسلام.

فأجبتُ عنه بما نصه بعد افتتاحه: إذا كان الأمر كما ذكر وثبت الرسم المذكور الثبوت التام الشرعي بلا معارض، فلا يُلَوَّن ولاية شرعية بوجه، وتُكتب بتصرّيفهم كتب لئلا يندرس، وأما العقوبة فمصروفة إلى الاجتهاد. والله تعالى أعلم، وبه التوفيق.

وعطف فيه عطفًا مجردًا الفقيه النائب عبد الله محمد قشور، والفقيه

الحاج سالم النفاتي المذكوران.

قلت: اعتمدتُ في هذا الجواب على ما وقع في ترجمة تقييد عداوة ليكون عدة من الطرر في الورقة السابعة ومائة منها. ونصه: ولا تُقبل شهادة القاضي إذا أقرّ أو ثبت عليه أنه حكم بجورٍ أبداً وإن تاب وصلحت حاله، كشاهد الزور لأنه أقبح منه، وتُكتب أمورهما في كتاب لئلا يندرس فتُقبل شهادتهما، انتهى. وعلى ما وقع في آخر الركن الثاني من التبصرة في الورقة الحادية والثلاثين منها ونصه: فصل، في مختصر الواضحة: وعلى القاضي إذا أقرّ أنه حكم بالجور أو ثبت عليه بالبينة العقوبة الموجعة ويُعزل ويُشهر ويُفصح، ولا تجوز ولايته أبداً ولا شهادته وإن صلحت حاله وأحدث توبة بما اجترم في حكم الله تعالى. ويكتب أمره في كتاب لئلا يندرس الزمان فتُقبل شهادته. والقاضي أسوأ من شاهد الزور حالاً. ذكر ذلك في آخر الفصل الحادي عشر من قسم السياسة في الورقة الحادية والأربعين ومائتين من التبصرة، انتهى.

قلت : ولا إعدار له في من شهد بجرحته على ما أفتى به القاضي أبو الوليد بن رشد - رحمه الله تعالى- وعَلَّله القاضي أبو عبد الله ابن الحاج بأن الولاية حق للمولى عليهم لا له. وأفتى ابن العواد القول بالإعدار إليه باطلٌ وتغييرٌ لسنة المسلمين. اعرف المسألة في الورقة الثانية والتسعين من تذكير الغافل وتعليم الجاهل للشيخ الجد - رحمه الله تعالى-. واعرف مع هذه النازلة جواب الفقيه محمد قشور فيها، وسؤاله عن نازلته الواقعة به في شهر ربيع

الآخر عام تسعة وتسعين وتسعمائة [999 هـ/ فيفري 1591 م] تأتي في الورقة الثانية والتسعين ومائة، وانظر كيف تناقض كلامه (2). وانظر استعجالهم في الأمور النازلة وعدم مبالاتهم بما يعرض مستقبلاً بهم عريون بلا بصيرة والله دره حيث قال: إنارة العقل مكسوب بطوع هوى، البيت، فهم يفتحون الأبواب للولاة الظلام، ويحلون فيها في المستقبل في أنفسهم، لأنهم متلبسون بهذه المناصب المعروضة للعوارض. ومن ذلك فتحهم الأبواب على الفقيه بركات الشعبي في القضية الواقعة قبل هذا، مبدؤها في الورقة السابعة من هذا الجزء، وإذا حذروا من مفسد عواقب مرتكبهم يلوون رؤوسهم، فعلم أن مقصدهم ما يرونه مصلحة لهم في الحال، وهو إدخالهم مسرة على والٍ بتسليطه على بعض مطلوبه من الدنيا كيف كان. ((وإن ربك لبالمرصاد))<sup>1</sup>.



(1) القرآن : الفجر ، الآية 14. يبدو أن أبا القاسم عظم كان كثير النقد والتشهير بما أصاب قضاة وحكام عصره من الوقوع في الظلم والرشوة وإهمال الشرع وحدوده. وقد تعددت النصوص التي كتبها في نقد زمانه وما فيه من علماء السوء التابعين للسلطة وبيان أن هذا الفساد في نظام القضاة ونظام غيرهم من الفقهاء ظهر منذ دخلت الفتنة إفريقية بسبب اختلال ملكها وما أصاب ملوكها الأخيرين من غدر وخيانة.

ومن بين النصوص التي تدل على موقفه من ذلك ما كتبه في تأليفه " برنامج الشوارد " المخطوط رقم من دار الكتب الوطنية ونقله محمد سعادة في كتابه قرّة العين مخطوط دار الكتب الوطنية رقم 7129 الورقة 53 أ . يقول أبو القاسم عظم: " قلت وقد شاهدت منذ دخلت الفتنة إفريقية واختل نظامها باختلال ملك والهوى وصار تصرفهم بمجرد التشهي لأتباع أغراض الدنيا غير ملتفتين في تصرفاتهم إلى مشهور بل ولا إلى شاذ ولا إلى قول قائل. ومن أظهر مطلباً علمياً من مُفتٍ له دراية به أو طالب علم بادروا بإذابته وتحريك أسباب المضرات عليه ولو أدى ذلك إلى ذهاب عينه. وعلة ذلك الغيرة منهم على رئاستهم وخوفاً من ظهور من يزاحمهم فيها. تحويماً على الانفراد باستئصال أسباب الدنيا وأكلها معرضين عن زاجر قوله تعالى (( وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لئن بينته للناس ولا تكتمنونه.

فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فلبئس ما يشتررون وإن يُهْلِكُونَ إلا أنفسهم وما يشعرون (( { القرآن آل عمران الآية 187. { فلم يبق للمؤمن إلا أضعف الإيمان وهو التغيير القلبي. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

## 2 الفتوى الثانية:

(هي فتوى وضّح فيها أبو القاسم عظام أحكام القاضي  
الظالم والمرتشي).  
الأجوبة 6 : 204 - 209.

الحمد لله، سألني الفقيه محمد قشور (1)، المتأخر الآن عن وظيفة النيابة  
( 2 ) بتونس، في ربيع الآخر عام تسعة وتسعين وتسعمائة [999هـ/ فيفري  
1591م] بسؤال في قضية قيام العامة عليه ودعواهم أنهم دفعوا إليه أموالاً  
ذريعة رُشَى على الأحكام، ودعواهم أنه جارَ عليهم في الأحكام الشرعية حتى  
كان قيامهم المذكور سبباً في تأخيره عن وظيفة النيابة.

فقلت له: الجواب عن سؤالك لا يفيدك مصلحةً والنقل في نحرِك. أما تذكر  
أنا قد كُنّا أجبنا في سؤال لمحمد باشا في شأن الفقيه عبد الله بشير قاضي سوسة  
وشأن ولديه حسين وحسن (3) في نظير مسألتك هذه بتأبيد عزلهم وكتب أموالهم  
في كتاب لئلا تتدرس والعقوبة الشديدة. اعرف في الورقة الحادية والعشرين

مرت يـفـأـلـحّـ وذكـر أنّ الشـيـخ أبا عبد الله محمد الأندلسي (4) والحاج سالم النفاتي (5) قالـا له: إن الصواب معه، ولا تُقبـل دعوى العامة عليه، ولا تتوجّه عليه يميناً بدعواهم أخذ الرُشى، وعليهم هم في دعواهم ذلك عليه العقوبة. وذكر أنهما قالـا له: يُجيبك بلقاسم عظوم ونعطف عليه. فقلت له: لا أصلَ لذلك. فلما أن ألحّ عليّ ورأى أني قد قصرتُ أثبتُ هنا سؤاله وجوابي عنه لما تدعو إليه الحاجة، وليعلم أني ما قصرتُ بوجهه، لكن لا صواب معه في ذلك.

ونص السؤال بعد افتتاحه: جوابكم عن مسألة هي أن رجلا كان متوليا لخطة القضاء مدة مديدة لم يظهر على محلّه فيها أخذ رشوة، ولم يدّع عليه أحد بذلك. ثم أنه وقع له تأخير عنها بأمر من الله تعالى، قام عليه بعض غوغاء الناس وادّعوا عليه بذلك، مما يُكذّبُه العرف والعادة بإعطاء العشرين والثلاثين كرونة (6) من كل رجل منهم على جهة الرُشى.

فهل تتوجّه الدعوى المذكورة على الحاكم المذكور ويلزمه اليمين على نفيها إن أنكر والغرم إن نكل عنها؟ أو لا تتوجّه عليه الدعوى المذكورة ولا تُسمع؟ لما يلحق الحاكم المذكور في ذلك من المعرّة والشهرة والمضرة بتكرار الأيمان عليه، لكثرة الغرماء من الناس، إن أبيع لهم مخلصته. وهل يجب تأديب المدعي بذلك لإقراره على نفسه بممنوع وتلوّث عرض الحاكم بذلك، وعرضه كدمه أو لا يلزم ذلك؟ جوابكم شافيا توجرون، والسلام.

فأجبتُ عنه بما نصّه بعد افتتاحه: إذا كان الأمر كما ذكر فالدعوى

المذكورة متوجّهة ويلزم اليمين على إنكارها لأنها دعوى مالية. والدليل على  
توجّهها أمور.....

واعرف تصرّفه ( أي محمد قشور القاضي المعزول ) في هذا السؤال  
مع تصرّفه في قضية الفقيه عبد الله بشير السوسي وأولاده في جمادى الأولى  
عام سبعة وتسعين وتسعمائة [997هـ / مارس - أبريل 1589م] في الورقة  
الحادية والعشرين، (9) ومؤانسته لمحمد باشا فيها، وغفل عما يعرض له في  
نفسه هنا. وكذلك تصرّفه في نازلة الفقيه بركات الشعبي مرت في ربيع الآخر  
عام سبعة وتسعين وتسعمائة [997هـ / فيفري - مارس 1589م] في الورقة  
السابعة من هذا الجزء. والله عاقبة الأمور. وقد كنت حذرته وأبديت له ولمفئتيه  
ما يعرض لهما في أنفسهما من توسيع الدائرة لمحمد باشا في القضيتين، لكنهما  
إذا كانت عُدتهما بارق هوّى لا يباليان بأن لا شيء دونه.

- (1) هو محمد بن منصور قشور الجبالي معاصر عظم. ترجمه مخلوف في شجرة النور  
الزكية 1: 292 ، وذكره ابن أبي دينار في المونس ص 294.
- (2) أي النيابة في وظيفة القضاء.
- (3) انظر مسألة قاضي سوسة وابنيه الواردة في أجوبة عظم 6 : 55 - 57.
- (4) هو محمد الأندلسي التونسي. من أئمة جامع الزيتونة. توفي سنة 1017 هـ / 1609 م .  
مخلوف : شجرة النور الزكية 1: 292.
- (5) هو أبو النجاة سالم النفاتي التونسي. كبير عائلة النفاتيين (النفاتة) وهي عائلة علمية  
تونسية كانت تقيم بالحي المعروف بهم يقع بين باب السويقة وباب الأقواس بتونس. ما  
زالت بقايا آثار بيوتهم ظاهرة. منهم الفقهاء سالم وأبو الحسن وعلي ومحمد من الفقهاء.  
مخلوف : شجرة النور الزكية 1: 292.

(6) الكرونة: courone عملة إسبانية كانت مستعملة ومتداولة في البلاد التونسية خلال القرن 16م وبعده بقليل.

7 ( وردت قضية قاضي سوسة وابنيه مفصلة أيضا في أجوبة عظم 6: 16 - 48.

### 3 الفتوى الثالثة:

تتعلق بحماية المرأة من ضرر مقصود من زوجها.  
الأجوبة 3 : 72 - 76.

الحمد لله، سألني الحاج ساسي بن محمد علوان في سابع شهر ربيع الأول الشريف عام 1006 [هـ / 19 أكتوبر 1597 م] عن مسألة رجل زوج ابنته البكر في حجره من رجل وجهزها جهازاً لبيتها معتبراً وهو: فرشان تامان من الأردية القلعية والطابع والمطرور وغير ذلك. ثم بعد مدة وقع بين الزوجين مكالمة وحكم القاضي بينهما بالسكنى بين جديدين. فوجد الزوج بيتاً في دارٍ لا تصلح لسكنى مثلها لأن البيت لا ترفع القراقطن<sup>(1)</sup> ولا الجهاز المشار إليه. فهل يُقضى على الزوج ببيت تصلح لحمل جهازها وحوائجها في السعة والرفاهية أو له إسكانها ولو ببيت ضيقة عن ذلك ومترهلة وتُحرَم من الانتفاع بجهازها وتخرجه إلى غير محل سكنها؟ والسلام.

أجبتُ عنه بما نصّه بعد افتتاحه: إذا كان الأمر كما ذكر فعلى الزوج إسكانها ببيت صالح لحمل جهازها وحوائجها في سعته ومناسبته لذلك. أما بيتٌ ضيق عن حمل ذلك ومترهل يضرّ ترهله وضع الحوائج الرفيعة فيه فلا. وهذا



لا ينافي كون السكنى للزوج مع بقاء العصمة، لأن إلزام الزوج في هذه النازلة بيتًا مناسبًا لما ذكر مطلوبٌ فرارًا من ضررها ببيت غير مناسب لذلك. وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم تسليمًا - ( إذا اجتمع ضرران نفي الأصغر للأكبر، وإذا التقى مكروهان ارتكب أخفهما). والله تعالى أعلم، وبه التوفيق.....

وله ( لابن ناجي ) في تاسعة طلاق السنة من صغيره في قولها: وإذا انهدم المسكن فدعته المرأة إلى سكنى دار أخرى ودعا الزوج إلى غيره فذلك لها. إلا أن تدعوه المرأة إلى ما يضرّ به لكثرة كراءٍ أو ضررٍ فتمنع ولو أسقطت الكراء سكنت حيث شاءت، ما ذكره هو المشهور.....

قلت في أصل جوابي: وهذا لا ينافي كون السكنى للزوج مع بقاء العصمة يسكن بزوجه حيث شاء. ثم بينت وجه عدم المنافاة بقولي لأن إلزام الزوج في هذه النازلة بيتًا مناسبًا لجهازها وحوائجها في اتساعه وصحته فرارًا من ضررها أي من ضرر الزوج بها ببيت يراه الزوج وهو لا يناسبها في اتساعه وصحته. وهذا لأن ضيق البيت يجرمها من كون أسبابها معها، فتمنع من التمتع بأسبابها. وترهله يضرّ الأسباب الرفيعة بما يلحقها من غبار الترهل. وأتيت بالحديث الشريف دليلًا لوجوب ارتكاب الأخف من الضررين ضرر الزوج في إلزامه بيتًا يناسبها في ما ذكر وهو لا يناسبه في غلاء كرائها أو في سوء جوارٍ أو نحوه، وضرر الزوجة في إلزامها بيتًا لا يناسبها في ما ذكر.

فاعرف ذلك بخفة أحد الضررين وشدته هي المعنى الذي يدور معه الحكم في  
النازلة.

ووقع في أول خلع صغير ابن ناجي من كتاب التخيير والتمليك في  
قولها ( أي قول المدونة ): وإن كان الخلع.....<sup>(2)</sup> أن تخاف المرأة من نشوز  
أو ظلم ظلمها أو أضرّ بها لم يجز له أخذ شيء منها، فإن أخذه ردّه ومضى  
الخلع. ابن ناجي: أراد بالضرر ضرر البدن وبالظلم ظلمها في مالها وأعمّ فلا  
ترادف في كلامه، وبه يفسر قول ابن الحاجب: ولو خالعتُه لِظُلْمه أو ضرره  
فلها استرجاعه. وقال ابن عبد السلام: الظاهر أن ظلمه لها وإضراره بها  
كالمترادفين، وهو بعيد لما قلناه، انتهى من ابن ناجي..

(1) كذا وردت الكلمة بالأصل المخطوط. وقد تأتي بلفظ القرطون. وهو جملة ألواح

الفراش. انظر دوزي: ملحقات للمعجم العربية 2: 344.

(2) كلمة غير مقروءة في المخطوط.

## 4 الفتوى الرابعة:

من مسائل حفظ المرأة من ظلم زوجها.

الأجوبة 3 : 123 - 124.

الحمد لله، سألني رمضان الشويرف في يوم السبت ثاني عشر شعبان

عام 1008 [هـ / 27 فيفري 1600م] عن سؤال وجواب.

نص السؤال بعد افتتاحه: جوابكم عن مسألة رجل له زوجة وله منها

أولاد أحدهم رضيع وآخر فطيم وآخر غائب وبنت وولد أكبرهم سنُّه نحو سبعة

أعوام. أراد سكنى زوجته المذكورة بين جَيِّدَيْن ويعزل أولادها المذكورين

عنها. فهل له أن يعزل الأولاد عن أمهم أو ليس له ذلك ويكونون معها حيث

كانت؟

نص الجواب بعد افتتاحه: إذا كان الأمر كما ذكر، فالأولاد يكونون عند

أمهم إذ هي الحاضنة لهم إذا كانت في محل أمن وليس لأبيهم نزعهم منها دون

سبب. والله تعالى أعلم، وبه التوفيق. وكتبه أحمد بن محمد بن أحمد المسراتي.

فكتبتُ تلوه ما نصه: الحمد لله، إذا كانت أم الأولاد في عصمة أبيهم

فليس لأبيهم أن ينتزعهم منها ليختصّ بحضانتهم دون أمهم المذكورة، ويُمنع

من ذلك لأجل اشتراكهما معا في حضانتهم. والله تعالى أعلم، وبه التوفيق.

تذليله: كلام الفقيه المسراتي يؤذن بأن الأم تختص بهم لقوله: فالأولاد يكونون عند أمهم، وهذا الحكم إنما هو إذا كانت في غير عصمة أبيهم، إما مطلقة منه وختت عن زوج أجنبي عنهم وإما مات عنهم أبوهم. وكلامه يؤذن أيضا باختصاص الأم بحضانة الأولاد ولو كانت في عصمة أبيهم لقوله: إذ هي الحاضنة لهم، وليس الأمر كما قال، لأن صريح السؤال يقتضي أنها في عصمة أبيهم. لأنه إنما يريد سكنى الزوجة المذكورة بين جديين كما قال في السؤال إلا والحالة أنها في عصمته، وإذا كانت في عصمته فالحضانة مشتركة بينهما على ما صرح به الشيخ ابن عرفة. ومقتضى اشتراكهما في حضانتهم أن ليس له نزعهم منها ليختص بهم دونها كما أجبتُ به.

## 5 الفتوى الخامسة:

من مسائل حفظ المرأة من ظلم زوجها.

الأجوبة 3 : 433 - 435.

الحمد لله، سألتني فاطمة بنت بن نصر عُرف شبلا المديوني بخارج باب المنارة، (1) من جيران عبد الله المحروق، وزوج ابنتها محمد عُرف غرارا في يوم الثلاثاء 22 شعبان عام 1008 [هـ / 8 مارس 1600 م] عن مسألة رجل تزوج بكرًا بمدينة تونس منذ ثلاثة أعوام وأضرَّ بها في جميع المدة ضررًا بيِّنًا وأساء عَشْرَتَهَا وأسكنها عند جيدين (2) بعد أن نقلها من دار بعض قرابتها، ومن دار أخرى ثم نقلها عند جيدين بعد أن نقلها، وهي في جميع ذلك تشتكي ضرره بها، وخرجت من دار الجيد الثاني على وجه الغضبة، فقام يريد أن ينقلها من مدينة تونس ويسكن بها ببلد تبرسق، والحالة أنه ليس له بتبرسق دار ولا غيرها من الأملاك وليس له بها قرابة من وجهٍ ما. كما أن الزوجة ليس لها هنالك قرابة من وجهٍ ما. فهل يُقضى له بنقلها وإن كرهت والحالة أنها تشتكي ضررًا على نحو ما ذكر وكونه تزوجها بتونس فلا ينقلها من الحاضرة إلى القرية؟ والسلام.

الجواب بعد افتتاحه: إذا كان الأمر كما ذكر فليس للزوج المذكور أن ينقل زوجته المذكورة ولا يلزمها أن تنتقل معه، وذلك لما تبين من ضرره بها وإساءته عشرتها. قال القاضي أبو الوليد بن رشد - رحمه الله تعالى -: إذا عُرف الزوج بالإساءة إلى زوجته لم يكن له أن يرتحل بها. والله تعالى أعلم، وبه

التوفيق.....

وكون البلد الذي يريد نقلها إليه قرية لا يمنع الرحيل بها إلا حيث يكون عليها في نقلها إليه مَعْرَة أو مَضْرَة.

قال ابن ناجي: ظاهر قول المدونة وللزوج أن يَضْعَنَ بزوجه من بلد إلى بلد إن المدينة مخرج للقرية كعكسها. وهو ظاهر كلامهم وبه أفتى الشيخ أبو عبد الله محمد الحسين ابن الأمير أبي العباس أحمد الحفصي وإن كان عليها في ذلك معرة أو مَضْرَة فلا. عملاً بفتوى الشيخ أبي القاسم أحمد الغبريني، وأبي علي بن قداح وشيخنا ابن عرفة، وشيخنا البرزلي، وبه أقول، انتهى. واعرف هذا البحث إثر فصل الشغار من برنامج الشوارد ففيه الإيعاب. والله تعالى أعلم، وبه التوفيق.

( 1 ) من أبواب مدينة تونس.

( 2 ) دار الجيدين ( تُسَمَّى عند العامة دار أجواد ): هي دار لرجل وزوجه ممن ثبت صلاحهما الأخلاقي مع الثقة والصدق وحسن السلوك. يلجأ إليها الزوجان إذا اشتد الخلاف بينهما ولم يظهر المخطئ منهما. والجيّدان يعيّنهما القاضي بطلب من الرجل أو بطلب من المرأة. ومن وظيفة الجيدين أنهما يكشفان للقاضي حال العلاقات بين الزوجين.

## الفتوى السادسة:

من الحوادث التي وقعت عند استيلاء النصارى على تونس.

الأجوبة 1 : 61 - 62.

الحمد لله، التاجر علي المهدي قامت عليه بينة بأنهم عاينوه بدار فلان  
بإثر رجوع الناس من وادي الدواميس<sup>(1)</sup> إلى تونس من وقية الجمعة، فقالوا له:  
ما لك في هذه الدار؟ فقال لهم: لحفظها وما فيها لصاحبها من الفَيَاية<sup>(2)</sup> وقد قام  
صاحب الدار وقيد تقييداً عليه وقال فيه: إن بالدار المذكورة مطمراً بها شعير  
للتاجر أبي عبد الله محمد الخضار مخزن وأنه استقر بالدار المذكورة. وأجابه  
علي المهدي المذكور عن ذلك بالإنكار. قامت عليه تلك البينة فاستقتى فيها.  
فأجاب الفقيه محمد الأندلسي بأنه لا يلزمه بشهادة البينة شيء لأنه لا يلزم من  
معابنتهم إياه بالدار حق يترتب عليه. وبمثلته أجاب الشيخ بلفضل البرشكي.  
وغفلا عن تحكيم لفظه الذي هو داخل تحت شهادة البينة.

فلما أتاني لتكميل جوابي عن النازلة أجبت فيها بما كتبته الآن بالمحوّل:  
وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته. الحمد لله، ما أجاب به الشيخ المفتي -  
حفظه الله تعالى - بمثله أجيب لكن بشرط أن تكون الدار المذكورة خلية عن  
وجود الطعام المذكور بها وقت صدور ذلك اللفظ المشهود به على علي المذكور  
منه حتى لا يتوجه عليه وجوب حفظ مال المسلم المعروض للفيء. وقد التزم  
حفظ ما هو بها بتحكم ذلك اللفظ ولقاعدة الموااساة. والله تعالى أعلم، وبه التوفيق.

1 ( رجوع الناس من وادي الدواميس، وهي حادثة تسمى أيضا خطرة الدواميس كما يُطلق عليها " خطرة الجمعة " التي أصابت أهل تونس خلال شهر أكتوبر سنة 1573 / جمادى الثانية سنة 981 هـ عند هجوم النصارى بقيادة دون جوان دوتريش Don Juan d Autriche فالتجأ الناس إلى دواميس في ناحية جبل الرصاص في طريق مدينة زغوان. ذكر الحادثة بإيجاز ابن أبي دينار في المونس ص 173 وما بعدها والسراج في الحلل السندسية 2 : 213 ، وابن أبي الضياف في الإتحاف 2 : 18 - 19.

2 ( الفياية : هم الذين يجعلون أموال الناس فيئاً يستحلونها في ظروف الحروب. وفي العامية التونسية يقال : يُفَيِّيه أي يستولي على ماله ويتركه مفلساً.

## 7 الفتوى السابعة:

الوضع في تونس بعد هجمة النصارى الثانية.

الأجوبة 1 : 226 - 229.



الحمد لله، سألني الحاج محمد بوزينة في أواسط محرم الحرام عام خمسة  
وثمانين وتسعمائة [ 985 هـ / أوائل أبريل 1577 م ] بما نصه بعد افتتاحه :  
جوابكم عن مسألة هي أن رجلا من ذوي الأقدار بتونس لما أن وقعت " وقعة  
الجمعة " بها بُرُود عدوّ الدين - خَذَلهم الله تعالى - إليها وفرّ أهلها لشدة  
عارض ما دهمهم فرّ الرجل المذكور في مَن فرّ إلى وادي الدواميس لما حدث  
من طرود (1) من أخذ الأموال وتمكين الرجال. ففرّ بنفسه إلى زاوية الشيخ  
الجديدي (2) وترك زوجته وأولاده مع الناس حيث ذكر. ومنهم بنتٌ له ذات زوج  
فقدر أن أرسل بعض الناس خفيراً وحمولة لبعض أصحابهم فوجده قد عرض له  
ما منعه من المشي من هنالك، فتولّى زوجة الرجل أولاده الحمولة والخفير  
المذكورين فركبوا وصحبوا الخفير قاصدين الرجل بحرم الشيخ الجديدي  
المذكور. فحمد الله الرجل المذكور على مجيء أولاده وزوجته من محل  
الخوف إلى محل الأمن، وقد استولى العدو على المدينة المذكورة.  
ثم رجع غالب الناس إلى المدينة، وقصد الرجل المذكور القيروان بزوجه  
وأولاده، فهو إلى الآن بها مستوطنا خوفا من الوقائع وحدث بعض الفجائع.  
ثم الآن قام زوج البنت طلب منها أن تصحبه للرجوع إلى تونس وقد  
توافق هو وأبوها على أنه خلى بينه وبين زوجته إن صحبته فلا يمنعها، وإن  
امتنعت فيتناوب زوجها معها الحكم الشرعي - أعزه الله تعالى - في ذلك.

فامتنتت المرأة المذكورة وأدلت بأنه غير محسن لصحبتها وأحرى بعد أن تزوج عليها امرأة أخرى في غيبتها، وبأن زوجها المذكور في الواقعة المذكورة أسلمها ولولا تدبير أبيها صحبتها مع جملة عياله لما سلمت. والآن خشيت أنها تضيع عند وقوع نوع مما سبق ولا ولي لها بالمدينة، لكون أبيها قد استوطن القيروان كيف ذكر. وبأن الإخافة من العدو المذكور الآن موجودة والإرجافات بهم حاصلة، فتخشى فجأتهم وفي ذلك ضرر عظيم عليها حيث تتوقع الضرر. فهل تُسمع دعوى هذه المرأة في ما أدلت به ويكلف زوجها السكنى بها حيث هي ولا ضرر عليه لأن الأحكام الشرعية موجودة هنالك؟ وقد جاءت الشريعة الحنيفية بنفي الضرر ولا ضرر أشد من التعرض للاستيلاء على النفس. جوابكم شافيا والسلام.

فأجبت بما نصه: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته. الحمد لله، إذا كان الأمر كما ذكر فلا يلزم الزوجة المذكورة مصاحبة زوجها المذكور إلى حيث ذكر والحالة ما ذكر. وعليه أن يقوم بواجبها عليه ويتعاهد تفقدها بنفسه هنالك إن شاء. ويشهد لهذا الحكم القواعد الأصولية والنقول الفرعية. أما القواعد الأصولية فمنها قوله صلى الله عليه وسلم ( إذا تعارض ضرران ارتكب أخفهما ). وقد تقرر في الأصول أن الكليات الخمس مما أجمعت الملل كلها على وجوب حفظها، كما أجمعت على ترتيبها. فحفظ الأديان أكدها وله شرع قتل المرتدين،

ثم الأنفس وله شرع القصاص في القتل، ثم الأنساب وله شرع حدّ الزنا، ثم الأموال وله شرع القطع في السرقة، ثم الأعراض وله شرع حدّ الفرية.

والنظر في هذه القاعدة مبني على اعتبار المصالح والمفاسد، فأبها أكبر مفسدة فهو أشد ضرراً. ولا خفاء ولا مزية أن ضرر الرجل في ماله أو في مشقة سفره بتعاهد زوجته أقل مفسدة وأخف من ضررها. فالمكث بمكان مظنة الاستيلاء عليها الناشئ عن رجوعها إلى حيث ذكره السائل فيجب ارتكاب الأخف منهما لكونه أقل مفسدة، إذ هو في مالٍ والآخر في نفس. ولا يلزمه الانتقال بنفسه تبعاً لزوجته بل الأفضل بقاؤه بنفسه لتكثير سواد من بالدار لأنها من نوع الثغور، إن حسنت نيته وقويت مخيلته. ومنها قاعدة الوسائل تبع لمقاصدها، فوسيلة المحرم محرمة مثله، فالرجوع بالأهل تغرير وهو وسيلة ومظنة للاستيلاء عند فرصة العدو فيكون مثله في المنع.

( 1 ) طرود، قبائل من أعراب البلاد التونسية.

( 1 ) زاوية الشيخ الجديدي : تقع هذه الزاوية بين مدينتي الحمامات وزغوان. أسس الزاوية الشيخ محمد الجديدي وهو رجل اشتهر بالصلاح والأعمال الاجتماعية والمواقف السياسية الهامة خاصة عند هجوم النصارى بقيادة Don Juan d Autriche على تونس سنة 1573م واستباحها للجيش. ولما هرب أهل تونس إلى جهة جبل الرصاص وسكنوا دواميس هناك أعانهم الشيخ الجديدي ووجههم وأعان على تحرير الأسرى. كما وقف مواقف إصلاحية في خلاف قام بين الجيش العثماني وأهل الحمامات. ابن أبي دينار : المونس 175، 177.

## 8 الفتوى الثامنة:

من مسائل أسرى المسلمين في بلاد النصارى

الأجوبة 1 : 205.

الحمد لله، سُئِلت من المنستير في أوائل شعبان عام أربعة وثمانين وتسعمائة [ 984 هـ / أكتوبر 1576 م ] عن مسألة امرأة أُسِرت في وقية المنستير واتصل أسرها وفقدها، وانجرت لها ملك من إرثها في أبيها وفي زوجها.

فباع قائد البلد نصيبها المذكور في الملك المذكور لرجل ودفع له الثمن لمدة تزيد على عام واحد. فقام الآن عليه شركاء المرأة المذكورة بالإرث في زوجها وأقاموا بيّنة بأن الأسيرة تنصّرت ولم يؤرّخوا في أي وقت تنصّرت، قبل موت زوجها أو بعده؟ وهل قبل البيع عليها أو بعده؟ فهل يمضي بيع المخزن عليها أو يُفسخ بيعه ويفكّ المبيع من يد المشتري؟ والسلام.

فأجبتُ بما نصه: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته. الحمد لله، إذا كان الأمر كما ذكر فالبيع المذكور ماضٍ، وأحرى إذا ثبت أنها تنصّرت بعد موت زوجها وتقرر ملكها بالإرث منه. والحاصل أن بيع جانب المخزن المذكور لا يُتعقب أصلاً على ما أفتى به الشيخ ابن حمد بن وصوّبه الشيخ البرزلي - رحمة الله تعالى عليهما - . والله تعالى أعلم، وبه التوفيق. وكتبه أبو القاسم بن محمد مرزوق بن عبد الجليل بن محمد بن عظم.

## 9 الفتوى التاسعة :

بعض أوضاع أهل الذمة وأحكامهم ضمن المجتمع

الأجوبة 2 : 64 - 69.

الحمد لله، سألني اليهودي إبراهيم الزفج (أو الزفح) على يد التاجر أحمد شقرون

الخلفي في يوم الخميس خامس حجة الحرام عام 1006 [هـ / 10 جويلية 1598 م]

عن نسخة رسمين اثنين.

نص الأول بعد حمدلته: أشهد الذمّيان إبراهيم ابن الذمي يهودًا اليهودي والذمي إبراهيم الزفج أنهما تراضيا بالحكم الشرعي الشريف بالمحكمة الشرعية في الخصومة التي بينهما على مسعودة بنت إبراهيم الزفج المذكور زوجة إبراهيم المذكور الرضاء التام وترافعا لدينا ترافعا تامًا يشهد على إشهدهما بذلك في الحال الجائزة بتاريخ ثاني حجة الحرام عام 1006 [هـ / 7 جويلية 1598 م ] .

ونص الثاني: الحمد لله يعرف شهوده الذمي إبراهيم ابن الذمي يهودًا اليهودي معرفة صحيحة تامة ويشهدون أنهم سمعوا منه في مجلس الشرع العزيز يوم الاثنين غرة شهر التاريخ اعترافه أنه مكث مع زوجه الذمية مسعودة بنت الذمي إبراهيم الزفج تسعة عشر يومًا من يوم البناء بها، فمنها ستة عشر يوما معقودٌ عليها وثلاثة أيام آخرة التسعة عشر يوما مسرّحا نكحها فيها مرتين مرّة لم يلتذّ ومرة التذّب بها. فمن سمع منه اعترافه بما نسب إليه في التاريخ المذكور أمر ذكر وما علم لذلك رافعا ولا ناسخا بوجه من الوجوه وعلم إقامته معها إلى الآن. وهو بالحال الجواز قيّد بذلك شهادته هنا بتاريخ ثالث حجة الحرام عام 1006 [هـ / 8 جويلية 1598م].

ونص السؤال بعد افتتاحه: جوابكم بعد تأملكم من النسختين المذكورتين أعلاه والحالة أن الزوج المذكور ذكر أنه وجد زوجته المذكورة مُزالة البكارة وقام على أبيها بذلك والحالة إنهما معا من أهل ملة اليهود. فهل يلزمهما التحاكم عند حاكم المسلمين أم لا؟ وهل يُصدّق الزوج في ما ادعى أم لا؟ والسلام.

الجواب بعد افتتاحه: إذا كان الأمر كما ذكر وثبت الرّسمان المذكوران الثبوت الشرعي بوطء إبراهيم الزوج المذكور الذي اعترف به يلزمه النكاح وتسقط دعواه

المذكورة ولو كان صادقاً في دعواه في نفس الأمر. وعلى هذا فيلزمهما التخاصم في هذه النازلة عند حاكم المسلمين بالمحكمة الشرعية عملاً بما أشهدا به. والله تعالى أعلم، وبه التوفيق.....

قولي: وعلى هذا فيلزمهما التخاصم في هذه النازلة عند حاكم المسلمين عملاً بما أشهدا به على أنفسهما. وقع في ثمانية الإجارة من المسند المذهب (1) ما نصه: الحاكم بين أهل الذمة أمّا ما كان من تظالمهم كان كاستطالة بعضهم على بعض بمنع الحقوق لعدم دفع الثمن أو المثلثون والربا وغيره، فإنه يحكم بينهم في ذلك أساقفتهم . وهو مذهب سحنون فلا خلاف في وجوب الحكم بينهم في ذلك، رفعوا ذلك إلينا أم لا. وأما الحدود التي يجب عليه الحكم فيها بين المسلمين وإن لم يترافعوا إليه.

فقيل : يجب عليه الحكم بينهم فيها وإن لم يترافعوا.

وقيل: لا يجب عليه وإن حكموه. وأما النكاح والبيوع والمعاملات مما لا يجب على الإمام أن يحكم فيه بين المسلمين إلا أن يترافعوا إليه، فمذهب مالك - رضي الله تعالى عنه - أنه لا يجب عليه الحكم بينهم في ما ترافعوا إليه ورضوا بحكمه. قيل: يجب عليه أن يحكم بينهم في ما ترافعوا فيه إليه ورضوا بحكمه.

ابن رشد: لا خلاف أنه ليس لحاكم المسلمين أن يحكم بينهم برضى الأساقفة إن أبوا جميعاً أو أبى أحدهم. وإن رضي أهل الذمة وأبى الأساقفة لم يُلْتَقَتْ إلى إباية الأساقفة ولحاكم المسلمين أن يحكم بينهم، انتهى.

ففي كلام ابن رشد معتمدي في إلزامهما ما أشهدا به على أنفسهما من الرضاء بحكم حاكم المسلمين فاعرفه، وهذا لا ينافي مذهب مالك لا يجب عليه ويجوز له. وهو

عبارة ابن رشد حيث قال: إذا رضي أهل الذمة وأبا الأساقفة لم يلتفت إلى إباية الأساقفة ولحاكم المسلمين أن يحكم بينهم، فتأمله.

وقولي: أن لا رجوع لهما ولا لأحدهما في ما أشهدا به، أشرتُ بهذا الفصل إلى ما وقع في الورقة 37 من أفضية البرزلي عن جواب الشيخ ابن العطاء: وإذا ظهر في يد أحد الخصمين من اليهود شهادات المسلمين وجبت محاكمته بحكم المسلمين ولا يمكّنون من غير ذلك. البرزلي: لأن اتفاقهم على الشهادة بعدول المسلمين دليل على رضاهم بحاكم المسلمين فلا يُقبل رجوع مَنْ رجع منهم. وأما لو لم يكن هذا فلا يحكم حاكم المسلمين بينهم في ما لا تظلم فيه إلا برضاء الخصمين. وزاد بعض أهل المذهب ورضاء أساقفتهم بتخيّر الحاكم حينئذ.

---

(1) هو كتابٌ في ضبط قواعد المذهب المالكي ألفه محمد بن أحمد عظام من رجال القرن التاسع (كان حيًّا

سنة 889 هـ / 1484 م) مخلوف: شجرة النور الزكية 1: 259.



## 10 الفتوى العاشرة:

بعض أوضاع أهل الذمة وأحكامهم ضمن المجتمع  
الأجوبة 3 : 195 - 189

الحمد لله، سألني شمويل اليهودي من خُرْبُضَة القُدوني<sup>(1)</sup> في يوم الخميس 15

جمادى الأولى المذكور [ 1008 هـ / 3 ديسمبر 1599م ] عن مسألة ذمي أبرأته

والدته في ما طار لها بالإرث في والده مما خلفه موروثاً عنه من جميع الدعاوى ومن

جميع ما طرأ لها بالإرث في والده، حتى نصيبها في الدار المخلفة عنه. ثم أن ولدها

المذكور سمع أن والدته الذمية المذكورة باعت نصيبها من ذمي آخر من الدار

المذكورة فترافعا مع الذمي الآخر لدى مَنْ يجب وهو قاضي المسلمين فحكم بينهما أن

واحدًا يقيّد والآخر يجاوب، فقيّد الولد ولد البائعة المذكورة بأنه سمع أن الذمي المذكور اشترى من أمه المذكورة نصيبها من الدار المذكورة. فأجابه ريان قال: أنا راض منك بحق الله بدار الصلاة متاع اليهود ونقيّد عليك نصيب والدتك بالعدالة. وشهد على المسؤول المذكور شاهدان في جوابه المذكور في التقييد. ثم إن والدته المذكورة اعترفت بأن بيعها كان سابقًا على الإبراء.

فهل يُقبل قولها أو لا مقال لها في ذلك لأن الحق تعلق للغير؟ وهل للمشتري مقال إذا حلف له الولد الذمي المذكور كيف التزم به الذمي المشتري المذكور له أم لا؟ ثم إن المشتري ادّعى أن بيده بيع أم الولد المذكور بخط أحبارهم قبل إبرائها لولدها المذكور، فهل يُقبل منه ذلك أم لا؟ والسلام.

فأجبت بما نصه بعد افتتاحه: إذا كان الأمر كما ذكر فاعتراف اليهودية المذكورة بعد صدور الإبراء منها غير مقبول لأنه اعتراف في ملك قد خرج عن يديها فصار إقرارًا على غيرها وهو الابن المبرأ فلا يقبل، ولأن إقرار المقرّ مهما كان ضررًا على غير المقر فإنه لا يقبل منه. صرح به الشيخ ابن ناجي في كبيره وعزاه لابن القاسم - رضي الله تعالى عنه - . وأما اليهودي مدّعي الشراء فالتزامه أن يردّ ما اشتراه على الولد المخاصم إن حلف له الولد بدار صلاتهم التزام صحيح ويلزم العمل به على ما به الفتوى، إذا شهد عليه بالتزامه عدلان من عدول المسلمين لأنه التزام بعد الدعوى. وما استظهر به مدعي الشراء من الأم وهو خط أحبارهم غير عامل لأنه قد .....<sup>(2)</sup> بالتزامه الرد على اليمين كما ذكر ولأن شهادتهم غير عاملة عندنا،

والخصمان قد تراضيا بحكنا حيث ترافعا إليه وحُكنا يلغي شهادتهم. وحاصل  
الجواب أن الولد يحلف كما طلب عليه مدعي الشراء ويطيب له ملك الجزء المشتري.  
والله تعالى أعلم، وبه التوفيق.....

- 
- (1) كذا بالأصل.  
(2) كلمة غير مقروءة بالأصل.

### ثبت المصادر والمراجع :

- برنامج مكتبات جامع الزيتونة ( العبدلية والصادقية ) .  
نشر إدارة جامع الزيتونة . طبع المطبعة الرسمية العربية بحاضرة تونس ، سنة 1910/1328. أربعة  
أجزاء .  
البرزلي : أبو القاسم .  
فتاوى البرزلي = جامع مسائل الأحكام، لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام. تقديم وتحقيق محمد  
الحبيب الهيلة. طبع دار الغرب الإسلامي. بيروت 2002.  
البشروش : توفيق.

موسوعة مدينة تونس . نشر مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس . سنة 1999 .

البغدادي : إسماعيل باشا .

إيضاح المكنون ، في الذيل على كشف الظنون . طبعة إسطنبول 1951 – 1955 .

التميمي : عبد الجليل .

الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغربية في القرن

السادس عشر. بحث نشر في المجلة التاريخية المغربية ( العدد 10 و 11 سنة 1978 ) .

التنبكتي: أحمد بابا.

نيل الابتهاج، بتطريز الديباج. بهامش الديبا المذهب لابن فرحون. مطبعة السعادة. مصر

1329 هـ / 1911م.

الجودي : محمد القيرواني

تاريخ قضاة القيروان . تقديم وتحقيق أنس العلاني . طبع بيت الحكمة ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، قرطاج - تونس 2004.

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد الحضرمي.

التاريخ = كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر . طبعة دار العلم للجميع ببيروت . مصورة عن

الطبعة المصرية القديمة .

خوجة : حسين الحنفي

ذيل بشائر أهل الإيمان ، بفتوحات آل عثمان . تحقيق وتقديم الطاهر المعموري . طبع الدار العربية

للكتاب ، تونس ( دون تاريخ ) .

ابن الخوجة : محمد

تاريخ معالم التوحيد ، في القديم والجديد . تحقيق الجيلاني ابن الحاج يحيى و حمادي الساحلي . طبع دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1985 .

دوزي : رينهارت .

ملحق للمعاجم العربية . طبعة بريل – ليدن 1881 .

الدولاتي : عبد العزيز .

مدينة تونس في العهد الحفصي . تعريب محمد الشابي بمشاركة المؤلف . طبع دار سيريس للنشر ، تونس 1981 .

ابن أبي دينار : محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني .

المونس ، في أخبار إفريقية وتونس . تحقيق الشيخ محمد شمام ، نشر المكتبة العتيقة بتونس 1967 .

الرايس : محمد .

القواعد الفقهية وتحقيق الجزء الأول من كتاب المسند المذهب ، في ضبط قواعد المذهب لمحمد عظم . رسالة دكتوراه من الحلقة الثالثة ، نوقشت بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بتونس سنة 1404 / 1983 .

الرزقي : محمد الطاهر .

متطلبات الشهادة على المشهود عليه مع تحقيق رسالة نعوته للشيخ أبي القاسم عظم . دراسة قُدمت لنيل دكتوراه الحلقة الثالثة من الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين سنة 1401 / 1981 .

السراج : محمد بن محمد الأندلسي الوزير .

الحلل السندسية ، في الأخبار التونسية . تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة . نشر دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1984 ، ثلاث مجلدات .

سعادة (محمد)

قرة العين، بنشر فضائل الملك حسين بن علي. مخطوط دار الكتب الوطنية رقم 7129.

السنوسي : محمد بن عثمان.

مسامرات الظريف ، بحسن التعريف . تحقيق وتعليق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، طبع دار الغرب الإسلامي بيروت ، سنة 1994 . 4 أجزاء .  
الشاببي : علي.

ابن أبي الضياف : أحمد .

الإتحاف = إتحاف أهل الزمان ، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان . تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار بتونس ، 1963 – 1968 . 8 أجزاء .

عبد السلام : أحمد.

المؤرخون التونسيون في القرون 17 و 18 و 19 . طبع بيت الحكمة بتونس سنة 1993.

عظوم : أبو القاسم.

الأجوبة هو حاليا تحت الطبع نشر بيت الحكمة بتونس بتحقيق محمد الحبيب الهيلة.  
الأدلة المحكمة المجازة، في افتقار التبرعات إلى القبول مع الحيازة. منه نسخة بخط المؤلف محفوظة بدار الكتب الوطنية بتونس ، رقم 13142.  
برنامج الشوارد = البرنامج لاستخراج مسائل الشامل. منه نسخة محفوظة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 12210.

برنامج وثائق الفشتالي. منه نسخة محفوظة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 1898.  
تخميس بعض أبيات الشقراطسية. منه نسخة محفوظة بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر ضمن المجموع رقم 310.

تراجم المختصر الخليلي . منه نسخة محفوظة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 15096.  
رسالة في نعوت المشهود عليه. طبعت بتحقيق الطاهر الرزقي نشر مكتبة الرشد وشركة الرياض للنشر بالسعودية سنة 1998 ،  
رسالة في الجزية وأحكام أهل الذمة . منه نسخة محفوظة بمكتبة الشيخ محمد الشاذلي النيفر ضمن المجموع رقم 310.

مناهل الورد، في القضاء بموجب الحدود. منه نسخة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم

.8004

ابن العماد الحنبلي : عبد الحي بن علي.

شذرات الذهب، في خبر من ذهب. طبع دار الفكر، بيروت 1399 هـ / 1989م ( طبعة

مصورة ).

الغزي : نجم الدين محمد.

الكواكب السائرة، بأعيان المائة العاشرة. تحقيق جبرائيل سليمان جبور. نشر محمد أمين

دمج، بيروت 1945. 3 أجزاء.

قاسم : أحمد.

أوضاع إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم . رسالة جامعية قُدمت لكلية الآداب

والعلوم الإنسانية بتونس لنيل شهادة التعمق في البحث سنة 1983 .

ابن القاضي: أحمد بن محمد

جذوة الاقتباس، في من حلّ من الأعلام مدينة فاس.

كحالة : عمر رضا.

معجم المؤلفين . طبع الترقى ، دمشق 1957 – 1961 ، 14 جزءًا .

الكناني : محمد بن صالح القيرواني.

التكميل = تكميل الصلحاء والأعيان ، لمعالم الإيمان ، في أولياء القيروان . تحقيق محمد العنابي .

نشر المكتبة العتيقة بتونس سنة 1970.

محفوظ : محمد.

تراجم المؤلفين التونسيين . طبع دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1982 – 1985 ، 5 أجزاء .

مخلوف المنستيري : محمد.

شجرة النور الزكية ، في طبقات المالكية . طبع السلفية ، القاهرة 1350 / 1931 – 1352 / 1933 ،  
جزآن .

النيفر : ( المؤلف محمد النيفر والتذييل والاستدراك لابن المؤلف علي النيفر ).  
عنوان الأريب ، عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب . طبع ونشر دار الغرب  
الإسلامي ، بيروت 1996 ، جزآن.

النيفر : محمد الشاذلي.

- تراجم خليل والطرق التقريبية للفقهاء . بحث صدر في النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة  
وأصول الدين بتونس . العدد الأول ، السنة الأولى (1970) ص 97-168 .  
- بلقاسم عظوم والبرامج الفقهية . بحث نُشر في مجلة جوهر الإسلام بتونس ، السنة الثانية (1969)  
- ( 1970 ) الأعداد 2 و 6 و 7 و 8 .

### المراجع باللغات الأجنبية :

**Berque ( j. )**

**L'interieur du Maghreb ( XV-XIX siècle )**

Ed. Gallimard , Paris 1978 .

**Brockelmann ( C. )**

**Geschichter der Arabischen Litteratur = G.A.L.**

Ed. Leiden , Brill 1937 – 1944 .

**Brunschvig ( R. )**

**Un document sur une princesse hafçide de la fin du xvi siècle .**

Art. in Revue Africaine Tome LXXX . n° 370 ( Avril 1937 ) p. 12 .

**Cherif ( M. H. )**

**Témoignage du mufti Qasim Azzum .**

Art. in Cahiers de Tunisie n° 77- 78 , année 1972 pp. 39 – 50 .



**Dozy ( R. )**

**Supplément aux dictionnaires arabes .**

Ed. E. J. Brill . 1881 .

**Monchicourt.**

**Les Hafsides en exil de 1574 à 1581**

Revue Tunisienne no 26, 1936 , pp203

**Poinsot et Lautier :**

**Les gouverneurs de la Goulette durant l'occupation espagnole ( 1535- 1574)**

Revue Tunisienne no 3 et 4 pp 221-

**Sebag , Paul .**

**Tunis : Histoire d'une ville p 177( D'après l'Atlas de Baun et Hoggenberg).**

